

الحسين والسيئة

شيخ الاسلام ابن تيمية

٦٦١ - ٧٢٨ هـ

تقديم

الدكتور محمد جميل بن غيازي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام
على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين]

شيخ الإسلام... الإمام

(أنا رجل مسلمة ، لا رجل دولة)

* ابن تيمية *

— ١ —

بين يديّ ، وأنا أكتب هذه المقدمة ؛ مجموعة من المراجع التي كتبت
عن ابن تيمية ، وعرفت به .. !

وبين يديّ - أيضاً - حشد هائل من « البطاقات » التي تحمل نصوصاً
وأراءً ، وأرقاماً ، ووقائع ، وتعليقات .. تعين في الكتابة عن الرجل ،
والترجمة له ترجمة واضحة مستوعبة !

وقد أردت من خلال كل أولئك أن أكتب عن هذا الرجل الإمام ،
معرفاً به ، وبجهاده وجهوده ، وبعلمه وفضله ، وبشخصيته ومناقبه ... !

* * *

ولكنني عدت ، فنحّيت المراجع والبطاقات جانبا !

وقررت أن أكتب عن « شيخ الإسلام .. الإمام » بدون مراجع ،
ولا بطاقات !!

من إذا كرة لا من المذكرات !

ذلك لأن علاقتي « بشيخ الإسلام ... الإمام » ترجع إلى عشرين عاماً مضت !!

قرأته ..

وقرات عنه ..

واستوعبت - أو كدت - ، منهجه في التجديد ، وخطته في الإحياء ، وطريقته في الفهم !!

ولعلّ بهذا ...

أستطيع أن أكتب عن « شيخ الإسلام ، الإمام » مقدّمًا لكتابه : « الحسنه والسينة » ..

ولعلّ بهذا - لا أخرج عمّا تواضع عليه الباحثون ، وقعدوه من أساليب البحث ، ومناهج الدراسة !

— ٢ —

وأبادر فأقول لحماة المنهج العلمي ، ودعائه ..

إن « ابن تيمية » قد سبقهم إلى تقرير قواعد المنهج العلمي في جميع ما كتب ، ودرس ، وبحث ، وحقق ..

بل إنه أول من ناقش « منطق أرسطو »^(١) وردّ أشكاله وحدوده .

ووضع أسس المنهج الاستقرائي .. أو .. منطق العلوم !

ولكنه لم يجد من قومه من يهتم به كما وجد « بيكون » من قومه حتى نسب المنطق الاستقرائي إلى « بيكون » .. وكان حقه أن ينسب إلى « ابن تيمية » وضعاً للأموور في نصابها !!

(١) راجع كتابه : « نقض المنطق » و « الرد على المنطقيين » .

إن « ابن تيمية » مؤلفاته التي أربت على الخمسمائة ، أدّى خدمات جليلة إلى المكتبة العربية الإسلامية . . . ولكنه على الرغم من هذه الجهود التي ينوء بالاضطلاع بها « العصابة أولو القوة » من الدارسين والمؤلفين ؛ لم يجد من يتوفر على دراسة مؤلفاته دراسة جادة ، وفهرستها فهرسة دقيقة ، وإشاعتها في الخافقين . .

و « ابن تيمية » . .

أو . . شيخ الإسلام ، الإمام .

عالم ، وعى مصادر الثقافة الإسلامية ، واستوعب ما كتبه وألفه أئمة الدين وشيوخه . .

هو عالم لا يكتفى بحفظ الدين وروايته ، فهذا دور يتحوّل به « العالم » إلى « كتاب » . . . يوضع على رفّ في صوان !

ولكنه كان يناقش ما يقرأ ، وما يسمع بوعى وفهم ورغبة أكيدة في الوصول إلى الحق . . وقد وصل !

فما كان مقلداً لآراء الآخرين ، ولا حامداً على أفكار سابقيه لأنها عرضة للحق والباطل ، وللصواب والخطأ ، للأخذ منها وللردّ عليها !

ولم يكن الرجل يسير على (الهوى) في مناقشة آراء الآخرين وأفكارهم ، وإنما كان يلوز ويعتصم (بالهدى) من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ولهذا .. وجد نفسه مضطراً إلى مخالفة كثيرة من الأفكار السائدة . .

ووجد نفسه مضطراً إلى دخول معركة حامية الوطيس مع عباد القديم ،
وسدنته ، أولئك الذين يعبدون القديم ويديفون به ؛ لأنه قديم ، لا لأنه حق !
آذوه بكل أسلوب ..

واستمعوا في حربه كل سلاح ؛ حتى أسلحة الدس ، والخداع ، والتآمر !
ولكن الرجل كان كبيراً ، فأبى ، ولا استسلم ، ولا تراجع ؛ بل
ظل صامداً صابراً ؛ يدافع عن الحق الذى يؤمن به ويفتيده ..
وقدموه للمحاكمة .. أكثر من مرة ..

وناقشوا آراءه التى زعموا — أنها اختلاق وافتراء — والتى أفهمهم بكل
جلاء ووضوح أنها الحق الذى جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ..
ولكنهم كشأن كل مجادل مبطل ، متكبر جبار :
﴿ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَ جُنُنَهُ حَتَّىٰ هَٰذَا ﴾

* * *

دخل « شيخ الإسلام ، الإمام » السجن عدة مرّات ، فى مصر ، وفى
دمشق ..

ولم يكن السجن ليروعه أو يخيفه ؛ بل كان شيئاً محبباً إلى نفسه ، فهو
الذى يقول :

[ما يصنع أعدائى بى ؟]

أنا جنّتى وبستانى فى صدرى ..

أين رحّت فهى معى لا تفارقتى ..

أما حبسى خلوة ..

وقلتى شهادة ..

وإخراجي من بلدي سياحة]

وهو الذي يقول :

[المحبوس من حبس قلبه عن ربه ،

والمأسور من أمره هواه]

وهو الذي يقول :

[فتح الله عليّ في هذا الحصن من معاني القرآن ، ومن أصول العلم
بأشياء مات كثير من العلماء يتمنونها ، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي
في غير معاني القرآن] .

وهو الذي يقول لما أدخلوه القلعة سجيناً ، وأغلقوا عليه بابها :
﴿ فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بُابٌ بِاطْنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ
العَذَابُ ﴾ .

— ٦ —

ولم يكن ابن تيمية - وحده - هو العالم المسلم الذي أدّى ضريبة العلم ، فإن
كثيراً من علمائنا مروا بنفس التجربة ، وفتنوا في أموالهم وأنفسهم . . .

فهذا هو عبد الرحمن بن أبي ليلى ، وسعيد بن جبير يقتلها الحجاج !

وهذا هو سعيد بن المسيّب يضربه عبد الملك بن مروان مائة سوط ،
ويصبّ عليه جرّة ماء في يوم شاتٍ !

وخبيب بن عبد الله بن الزبير - يضربه عمر بن عبد العزيز بأمر الوليد
مائة سوط ؛ لأنه حدّث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا بلغ
بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً اتخذوا عباد الله خوّلاً ، ومال الله دولا ! » .
فكان عمر إذا قيل له : أبشر ، يقول : كيف بخبيب على الطريق !

وأبو عمرو بن العلاء يضربه بنو أمية خمسمائة سوط !
 والإمام موسى الكاظم سجنه هارون الرشيد حتى مات !
 والإمام أبو حنيفة توفي في السجن بعد أن ضرب ، وقيل : سُقِيَ سُمًّا !
 والإمام مالك ضربه جعفر بن سليمان والى اللديفة من قِبَل النصور
 سبعين سوطًا !

والإمام أحمد ، امتحن وسجن وضرب في أيام بني العباس .

* * *

وهكذا .. هكذا ..

يحمل التاريخ الإسلامى فى أعز صفحاته « قوائم شرف » بأسماء علماء
 أجلاء أدوا الرسالة فى بسالة ، ووفوا بميثاق الله الذى واثقهم به لما أوتوا
 الكتاب : ﴿ لَتَبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ .

— ٧ —

لكن : من هو العالم ؟

ونرجع إلى « شيخ الإسلام ، الإمام » نسأله ونستفتيه فنجد الإجابة
 واضحة فى كتابه « الحسنة والسيئة » هذا هو الذى تقدمه للقراء اليوم . . .

قال - رحمه الله وأثابه - وهو بصدد تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

السيئات - كلها - ترجع إلى الجهل ، وإلا فلو كان الإنسان عالماً عالماً
 نافعاً بأن هذا يضرمه ضرراً راجحاً لم يفعله ، فإن هذا خاصية العاقل !

ثم ينقل عن أبى العالية قوله : « سألت أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم

عن هذه الآية ، فقالوا : كل من عصى الله فهو جاهل ، ومن تاب قبل الموت فقد تاب من قريب .

وقال « شيخ الإسلام ، الإمام » - رحمه الله وأثابه - وهو بصدد تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ كل من خَشِيَهُ وأطاعه وترك معصيته فهو عالم ، كما قال الله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وينقل عن الشعبي أن رجلا قال له : أيها العالم ، فقال : « إنما العالم من يخشى الله ؟ » .

وينقل عن ابن مسعود قوله : « كفى بخشية الله علما ، وكفى بالاغترار جهلا » .

* * *

فالعالم - عند ابن تيمية - هو من يخشى الله ، ويوقره ، ويتبع أوامره ، ويجتنب نواهيه ، ويقف عند حدوده ، ويصدع بما يؤمر . . !
والجاهل - عند ابن تيمية - هو من يفعل السيئات ، ويأتى الموبقات ، ويتكاسل عن أداء الواجبات ! !

ألا ليت علماءنا يفهمون دورهم ورسالتهم هذا الفهم السليم المستقيم . .
ألا ليتهم يدركون أن العلم ليس كتباً تحفظ لتتلى ، ولا « دبلومات » تُزَيَّن بها صدور الحوائط ، وإنما العلم خاق ، ورسالة ، وأمانة ، وخشية لله !

ألا ليتهم يفهمون . .

ألا ليتهم يدركون ..

إذاً لتغير وجه الدنيا ، وانصلح أمر الناس .

* * *

ومادمت قد وصلت إلى هذه النقطة من هذه المقدمة ، فإننى أكون قد وصلت إلى التعريف بالكاتب .. والكتاب فى آن واحد .

فالكاتب هو : « كتاب الحسنة والسيدة » أى : « كتاب العلم والجهل » .

والكاتب - عالم يفهم رسالته ، ويعرف أبعاد هذه الرسالة وأعماها .. فهو ليس رجل محافل ، تزدهيه عبارات الإعجاب والإطراء ، ويستهويه أن يتجمع حوله أتباع وأشباع ..

إنما هو رجل حق .. يزول معه حيثما زال ، ويميل أينما مال ..

هو رجل يسير فى الطريق المستقيم ، ولا توحشه قلة السالكين .

وينأى عن الطريق المنحرف ، ولا يفتربكثرة الهالكين ..

هو كما يقول عن نفسه : « رجل ملّة ، لا رجل دولة » ..

— ٩ —

إن « ابن تيمية » موسوعة ثقافية هائلة ، وحركة نضالية دائمة ، وتاريخاً إسلامياً حافلاً ..

يقول عنه معاصروه :

[كانت له خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم ومعرفة بفنون الحديث مع حفظه لمتنونه الذى انفرد به ، وهو عجيب فى استحضاره

واستخراج الحجج منه ، وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة والسند ؛
بحيث يصدق عليه أن يقول : كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بمحدث ،
ولكن الإحاطة لله تعالى ، غير أنه يغترف من بحر ، وغيره من الأئمة يغترفون
من السواق ، وأما التفسير فسلم إليه ، وكان يكتب في اليوم واللييلة من
التفسير أو من الفقه أو من الأصول أو من الرد على الفلاسفة نحواً من أربعة
كراريس [١] .

ويقول عماد الدين الواسطي :

[فوالله ، ثم والله ، لم يرتح أديم السماء : مثل شيخكم ابن تيمية علماً
وعملاً وحالاً وخلقاً واتباعاً وكرماً وحلماً وقياماً في حق الله تعالى عند
اقتهاك حرمانه] .

ويقول الزمكاني :

[كان الفقهاء في سائر الطوائف إذا جالسوه استفادوا في مذاهبهم منه
أشياء ، ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه ، ولا تسكلم في علم من العلوم
سواء أكان من علم الشرع أو غيره إلا فاق فيه أهله ، واجتمعت فيه شروط
الاجتهاد على وجهها] .

ويقول الحافظ الذهبي :

[لو خلفت بين الركن والمقام ، أنى مارأيت بعيني مثله ، وأنه ما رأى
مثل نفسه لما حنثت] .

ويقول عنه ابن دقيق العيد لما لقيه :

[رأيت رجلاً جميع العلوم بين عينيه يأخذ منها ما يريد ، ويدع ما يريد] .

هذا هو ابن تيمية ..

شيخ الإسلام ، الإمام ..

وهذا ما أردت أن أقوله في تقديمي لهذا الكتاب .. لكنني نسيت في
رحمة المشاعر والمآثر أن أذكر لك هذه الأرقام :

- ولد شيخ الإسلام الإمام : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية في ١٠ من ربيع الأول ٦٦١ هـ (١٣٦٣ م) بحران بالعراق .
- وهاجر به أبوه فرارا من التتار سنة ٦٦٨ هـ .
- وتوفي في ٢٠ من شوال ٧٢٨ هـ (١٣٢٨ م) بدمشق .

* * *

يرحمه الله رحمة واسعة كفاء ما قدم لدينه من ولاء وفداء ، وجزاء ما قدم
لأئمة من جهود وتضحيات .

وصدق الله العظيم :

﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ .

القاهرة (الزيتون) في الخميس : { ١٤ من جادى الآخرة ١٢٩١ هـ
من أغسطس ١٩٧١ م

محمد جميل أحمد غارنى

(تنبيه) : تيسيراً على القارئ قسمنا الكتاب إلى فقرات مرقمة ، ووضعنا
لكل فقرة عنواناً .

الحسين والسيدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستهديه ونستغفره . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، ومن يهده الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له .
وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم .

فصل

في قوله تعالى : ﴿ ٤ : ٧٩ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ وبعض ما تضمنته من الحكم العظيمة .

[سياق الآية]

١ — هذه الآية : ذكرها الله في سياق الأمر بالجهاد ، ودم الناكثين عنه . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا - الْآيَات ﴾ ^(١) إلى أن ذكر صلاة الخوف . وقد ذكر قبلها طاعة الله وطاعة الرسول والتحاكم إلى الله والرسول ، ورد ما تنازع فيه الناس إلى الله وإلى الرسول ، ودم الذين يتحاكمون ويردون ما تنازعوا فيه إلى غير الله والرسول .

فكانت تلك الآيات : تبييناً للإيمان بالله وبالرسول ، ولهذا قال فيها : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ، حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ ، وَيَسْلُمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ^(٢) .

وهذا جهاد عما جاء به الرسول ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ ^(٣)

وقال تعالى : ﴿ قُلْ : إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ، وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا : أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ، فَتَرْبِضُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ^(١) وقال : ﴿ أَجْعَلْتُمْ مَقَايِلَ الْحَاجِّ وَتِجَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ، يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ - ﴾ الآية ^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ؟ تَوَمَّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَيدْخُلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَمَسَاكِنُ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا ، نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشْرُ الْمُؤْمِنِينَ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ ، كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ : نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، فَأَمَنْتُ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ فَأَيْدِنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَاصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ ^(٣) .

وذكر بعد آيات الجهاد ^(٤) إنزال الكتاب على رسول الله ليحكم بين الناس بما أراه ، ونهيته عن ضد ذلك . وذكره فضل الله عليه ورحمته في حفظه ، وعصمته من إضلال الناس له . وتعليمه ما لم يكن يعلم : وذم من شاق الرسول ، واتباع غير سبيل المؤمنين . وتعظيم أمر الشرك ، وشديد خطره ، وأن الله لا يغفره ، ولكن يغفر ما دونه لمن يشاء إلى أن يبين أن أحسن الأديان . دين من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئاً ، بشرط أن تكون عبادته بفعل

الحسنات التي شرعها ، لا بالبدع والأهواء . وهم أهل ملة إبراهيم الذين اتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ (١) .

فكان في الأمر بطاعة الرسول والجهاد عليها اتباع التوحيد ، وملة إبراهيم . وهو إخلاص الدين لله ، وأن يعبد الله بما أمر به على السننِ رسلي الحسنات .

وقد ذكر تعالى في ضمن آيات الجهاد : ذم من يخاف العدو ، ويطلب الحياة ، وبين أن ترك الجهاد لا يدفع عنهم الموت ، بل أينما كانوا أدرتهم الموت ، ولو كانوا في بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ . فلا ينالون بترك الجهاد منفعةً ، بل لا ينالون إلا خسارة الدنيا والآخرة . فقال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم : كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ ، أو أشدَّ خشيةً . وقالوا : ربنا ، لم كتب علينا القتال ؟ لولا أخرتُنا إلى أجل قريب ؟ قل : متاع الدنيا قليلٌ . والآخرةُ خيرٌ لمن أنقى . ولا تظلمون قَتِيلًا ﴾ (٢) .

وهذا الفريق قد قيل : إنهم منافقون : وقيل : نافقوا لما كتب عليهم القتال : بل حصل منهم جُبن وفشل . فكان في قلوبهم مرض . كما قال تعالى ﴿ فإذا أنزلت سورةٌ مُحْكَمَةٌ ، وذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ . رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المَغْشَى عليه من الموت فأولى لهم ، طاعةٌ وقولٌ مَعْرُوفٌ - الآية ﴾ (٣) . وقال تعالى : ﴿ إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض : ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴾ (٤) .

والمعنى متناول لهؤلاء ولهؤلاء : ولكل من كان بهذه الحال .

ثم قال : ﴿ أينما تكونوا يدر كُفُّوا الموت ولو كنتم في بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ . وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك . قل : كل من عند الله . فَمَا لَهُوْلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (٥)

(١) النساء ١٣٥ . (٢) النساء ٧٧ .

(٣) محمد ٢٠ ، ٢١ . (٤) الأحزاب ١٢ . (٥) النساء ٧٨ .

فالضمير في قوله : « وإن تصبهم » يعود إلى « من ذكر » ، وهم : « الذين يخشون الناس » أو يعود إلى معلوم ، وإن لم يذكر ، كما في مواضع كثيرة .
وقد قيل : إن هؤلاء كانوا كفاراً من اليهود ، وقيل : كانوا منافقين .
وقيل : بل كانوا من هؤلاء . وهؤلاء . والمعنى يعم كل من كان كذلك .
ولكن تفاوله لمن أظهر الإسلام وأمر بالجهاد أولى .

ثم إذا تناول الذم ، فهو للكفار الذين لا يظهرون الإسلام أولى وأحرى .

[المراد بالحسنة والسيئة عند عامة المفسرين]

٢ — والذي عليه عامة المفسرين : أن « الحسنة » و « السيئة » يراد بهما النعم والمصائب ، ليس للراد مجرد ما يفعله الإنسان باختياره ، باعتباره من الحسنات أو السيئات .

فصل

[معنى الحسنات والسيئات في كتاب الله]

٣ — ولفظ « الحسنات » و « السيئات » في كتاب الله يتناول هذا وهذا .
قال الله تعالى عن المنافقين : (إِنْ تَمَسَسْتُمْ كُنْمْ حَسَنَةً تَسْؤُمْ ، وَإِنْ تَصَبَّحْتُمْ سَيِّئَةً يَفْرَحُوا بِهَا . وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)^(١) وقال تعالى : ﴿ إِنْ تَصَبَّكَ حَسَنَةً تَسْؤُمْ ، وَإِنْ تَصَبَّكَ مَصِيبَةً يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَنَبْتَوِّلُوهُمْ فَرَحُونَ ﴾^(٢) وقال تعالى : (وَبَلَّوْا نَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)^(٣) وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرحَ بِهَا ، وَإِنْ تَصَبَّهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾^(٤) وقال تعالى في حق الكفار المتطيرين بموسى ومن معه : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا : لَنَا هَذِهِ .

(٢) التوبة ٥٠ .

(٤) الشورى ٤٨ .

(١) آل عمران ١٢٠ .

(٣) الأعراف ١٦٨ .

وإن تصبهم سيئة يطأروا بموسى ومن معه ^(١) ذكر هذا بعد قوله : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسِّتِينَ ونَقَصْنا الشَّعْرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ ^(٢) .

[المأمور به النهى عنه]

٤ — وأما الأعمال المأمور بها ، والمنهى عنها ، ففي مثل قوله تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ﴾ ^(٣) ، وقوله تعالى : ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات . ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ ^(٤) وقوله تعالى : ﴿ فأولئك يُبدِّل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ ^(٥) .

[معنى التعبير « بما أصابك »]

٥ — وهنا قال ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ ولم يقل : وما فعلت ، وما كسبت ، كما قال (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) ^(٦) وقال تعالى ﴿ فاعلم أنما يريد الله : أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ﴾ ^(٧) وقال تعالى ﴿ قل : هل ترَبُّونَ بنا إلا إحدى الحسنيين ؟ ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ﴾ ^(٨) وقال تعالى ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة تحمل قريباً من دارهم ﴾ ^(٩) وقال تعالى ﴿ فأصابكم مصيبة الموت ﴾ ^(١٠) ، وقال تعالى

(٢) الأعراف ١٢٩ .

(٤) هود ١١٤ .

(٦) الشورى ٣٠ .

(٨) التوبة ٥٣ .

(١٠) المائدة ١٠٩ .

(١) الأعراف ١٣٠ .

(٣) القصص ٨٤ .

(٥) الفرقان ٧٠ .

(٧) المائدة ٥٢ .

(٩) الرعد ٣٣ .

﴿ وبشّر الصّابرين الذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا : إنا لله وإنا إليه
 واجعون ﴾ ^(١) .

فلماذا كان قوله : « ما أصابك من حسنة » و « من سيئة » متناول لما
 يصيب الإنسان ، ويأتيه من النعم التي تسره ، ومن المصائب التي تسوءه .

[آراء المفسرين]

٦ — فالآية متناولة لهذا قطعاً . وكذلك قال عامة المفسرين .

قال أبو العالية : « إن تصبهم حسنة يقولوا : هذه مع عند الله » قال :
 هذه في السراء « وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك » قال : وهذه
 في الضراء .

وقال السدي : « إن تصبهم حسنة قالوا » والحسنة الخصب ، ينتج
 خيولهم وأنعامهم ومواشيهم ، ويحسن حالهم ، وتلد نسأؤهم الغلمان « قالوا :
 هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة قالوا » - والسيئة : الضرر في أموالهم ،
 تشاؤماً بمحمد - « قالوا : هذه من عندك » يقولون : بتركنا ديننا ، واتباعنا
 محمداً أصابنا هذا البلاء فأنزل الله « قل كل من عند الله » الحسنة والسيئة
 « فاهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟ » قال : القرآن .

وقال الوالي عن ابن عباس : « ما أصابك من حسنة فن الله » قال :
 ما فتح الله عليك يوم بدر ، وكذلك قال الضحاك .

وقال الوالي أيضاً عن ابن عباس : « من حسنة » قال : ما أصاب من
 الغنيمة ، والفتح فن الله ، قال : « والسيئة » ما أصابه يوم أحد ، إذ شجّ في

وجهه ، وكُسِرَتْ رباعيته ، وقال : أما « الحسنه » فأنعم الله بها عليك ، وأما « السيئه » فابتلاك الله بها .

وروى أيضاً عن حجاج عن عطية عن ابن عباس : « ما أصابك من حسنة فمن الله » قال : هذا يوم بدر « وما أصابك من سيئة فمن نفسك » قال : هذا يوم أحد . يقول : ما كان من نكبة : فمن ذنبك ، وأنا قدرت ذلك عليك .

وكذلك روى ابن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح : « فمن نفسك » قال : فبذنبك ، وأنا قدّرتها عليك . روى هذه الآثار ابن أبي حاتم وغيره .

وروى أيضاً عن مُطَرَف بن عبد الله بن الشَّخِير . قال : ما تريدون من القدر ؟ أما تكفيكم هذه الآية التي في سورة الفساء : (وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك) ؟ أى من نفسك . والله ما وُكِّلوا إلى القدر ، وقد أُمرُوا به ، وإليه يصيرون .

وكذلك في تفسير أبي صالح عن ابن عباس : « إن تصبهم حسنة الخصب والمطر » وإن تصبهم سيئة « الجذب والبلاء » .

وقال ابن قتيبة « ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » قال : الحسنه : النعمة ، والسيئة : الهلية .

وقد ذكر أبو الفرج في قوله : « ما أصابك من حسنة - ومن سيئة » ثلاثة أقوال :

أحدها : أن « الحسنه » ما فتح الله عليهم يوم بدر ، و « السيئة » ما أصابهم يوم أحد . قال : رواه ابن أبي طلحة وهو الوالي - عن ابن عباس . قال : والثاني : « الحسنه » : الطاعة . و « السيئة » : للعساة قاله أبو العالبيه .

والثالث : « الحسنه » : النعمة ، و « السيئة » : البلية . قاله ابن منبه .
وعن أبي العالية نحوه ، وهو أصح .

[رأى ابن تيمية]

٧ — قلت : هذا القول المعروف بالإسناد عن أبي العالية ، كما تقدم
من تفسيره المعروف الذي يروى عنه هو وغيره ، من طريق أبي جعفر الدارى
عن الربيع بن أنس عنه وأمثاله .

وأما الثانى : فهو لم يذكر إسناده ، ولكن ينقل من كتب المفسرين
الذين يذكرون أقوال السلف بلا إسناد ، وكثير منها ضعيف ، بل كذب ،
لا يثبت عن نقل عنه : وعامة المفسرين المتأخرين أيضاً يفسرونه على مثل
أقوال السلف ، وطائفة منهم تحملها على الطاعة والمعصية .

فأما الصنف الأول : فهى تتناوله قطعاً ، كما يدل عليه لفظها وسياقها
ومعناها وأقوال السلف .

وأما المعنى الثانى : فليس مراداً دون الأول قطعاً ، ولكن قد يقال :
إنه مراد مع الأول ، فاعتبار أن ما يهديه الله إليه من الطاعة : هو نعمة فى
حقه من الله أصابته ، وما يقع منه من المعصية ؛ هو سيئة أصابته . ونفسه
التي عملت السيئة .

وإذا كان الجزاء من نفسه . فالعمل الذئى أوجب الجزاء أولى أن يكون
من نفسه ؛ فلا منافاة أن تكون سيئة العمل وسيئة الجزاء من نفسه ، مع أن
الجميع .مقدّر كما تقدم . وقد روى عن مجاهد عن ابن عباس : أنه كان يقرأ
« فمن نفسك ، وأنا قدّرتها عليك » .

فصل

[تابع المعاصي]

٨ — والمعصية الثانية ، قد تكون عقوبة الأولى ، فتكون من سيئات الجزاء ، مع أنها من سيئات العمل .

قال النبي صلى الله عليه وسلم - في الحديث المتفق على صحته - عن ابن مسعود رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « عايكم بالصدق ، فإن الصدق يهذى إلى البر ، والبر يهذى إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ، ويتحرى الصدق ، حتى يكتب عند الله صدوقا ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهذى إلى الفجور ، والفجور يهذى إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ، ويتحرى الكذب ، حتى يكتب عند الله كذابا » .

[تابع الحسنات]

٩ — وقد ذكر في غير موضع من القرآن ما يبين أن الحسنة الثانية : قد تكون من ثواب الأولى . وكذلك السيئة الثانية : قد تكون من عقوبة الأولى . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيْهًا . وَإِذَا لَا تَأْتِيَنَّهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ، وَلَهْدِيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ^(٢) وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَبِيلَهُمْ وَيُضْلِحَ بَالَهُمْ ، وَلَنُدْخِلَنَّهُمُ الْجَنَّةَ غُرَفًا لَهُمْ ﴾ ^(٣) وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْلَمُوا : السَّوْءُ ﴾ ^(٤) وقال تعالى : ﴿ وَكَتَابُ مُّؤْمِنٍ يَّهْدِي بِهِ اللَّهُ مَعَ اتِّبَاعِ رِضْوَانِهِ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ ^(٥) . وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا

(٢) العنكبوت ٦٩

(٤) الروم ١٠ .

(١) النساء ٦٦ - ٦٨

(٣) عم ٤ - ٦ .

(٥) المائدة ١٦ .

برسوله يؤتكم كِفْلَيْنِ من رحمته، ويجعل لكم نوراً تمشون به، ويغفر لكم^(١) وقال تعالى: ﴿وَفِي نُحُوتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾^(٢) وقال تعالى ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ . وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾^(٥) . وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لَنَصْرَفُ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(٦)، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾^(٧) وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ وَاسْتَوَى أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾^(٨)، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ - وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ - كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ، ذَلِكَ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ ، وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾^(٩) وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً يُضْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾^(١٠) وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ، وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾^(١١) [تحكيم السنة وتحكيم الهوى]

١٠ - قال أبو عثمان النيسابوري: من أَمَرَ السنة على نفسه - قولاً وفعلاً - نطق بالحكمة ، ومن أَمَرَ الهوى على نفسه - قولاً وفعلاً - نطق بالبدعة ، لأن الله تعالى يقول: « وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا » .

- | | | |
|------------------------|-------------------------------------|--------------------|
| (١) الحديد ٢٨ . | (٢) الأعراف ١٥٤ . | (٣) آل عمران ١٣٨ . |
| (٤) فصلت ٤٤ . | (٥) الأعراف ٢٠١ ، ٢٠٢ (٦) يوسف ٢٤ . | |
| (٧) يوسف ٢٢ . | (٨) القصص ١٤ . | (٩) محمد ١ - ٣ . |
| (١٠) الأحزاب ٧٠ ، ٧١ . | (١١) النور ٥٤ . | |

قالت : وقد قال في آخر السورة : ﴿ فَلَا يَخْذَرُ الَّذِينَ يَخَالَفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ،
 أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ، أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ^(١) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ
 أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ، وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ
 مَرَّةٍ ﴾ ^(٢) . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ
 الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ، وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ ^(٣) . وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ
 مُوسَى لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ نِي ؟ وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ، فَلَمَّا
 زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ - إِلَى قَوْلِهِ - وَمَنْ أَظْلَمُ
 مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٤)
 وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا : قُلُوبُنَا غُلْفٌ . بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٥)
 وقال تعالى أيضاً : ﴿ وَقَوْلُهُمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ . بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ
 إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ^(٦) . وقال تعالى : ﴿ فَبَيَّنَّتِ الذِّى كَفَرُوا . وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٧)
 وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ
 عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ . ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى
 رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ، وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ^(٨)
 وقال تعالى في النوعين : ﴿ إِذْ يُوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ : أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّثُوا
 الَّذِينَ آمَنُوا . سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ . فَأَعْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ،
 وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ . ذَلِكَ بَأْنَهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ^(٩) . وقال تعالى :
 ﴿ سَنَلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا ،
 وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ، وَبِئْسَ مَثْوًى لِلظَّالِمِينَ ﴾ ^(١٠) . وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ، مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرِجُوا

(١) النور ٦٣ .

(٢) الأنعام ١٠٩ ، ١١٠ .

(٣) آل عمران ١٥٥ .

(٤) الصف ٥ - ٧ .

(٥) البقرة ٨٨ .

(٦) النساء ١٥٥ .

(٧) البقرة ٢٥٨ .

(٨) التوبة ٢٥ - ٢٦ .

(٩) الأفعال ١٢ ، ١٣ .

(١٠) آل عمران ١٥١ .

وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف في قلوبهم الرعب ، يُخَرَّبُونَ بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار ، ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب^(١) ، وقال تعالى : ﴿ لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى ، وَإِنْ يَقَاتِلْكُمْ يُوَلَّوْكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصَرُونَ ، ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ أَيْنَمَا تُلْفُوا ، إِلَّا بِحَبْلٍ مِنْ اللَّهِ ، وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ، وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾^(٢) ، وقال تعالى : ﴿ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَقُولُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ : أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ، وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ ، وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾^(٣) وقال تعالى : ﴿ وَلَنَجْذِئَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا : إِنْ أُنْصَارَى . ذَلِكَ بَأْنٍ مِنْهُمْ قَسِيسِينَ وَزُهَّانًا ، وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾^(٤) . قال تعالى : ﴿ قَهْلَ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ؟ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ، فَاصْطَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ، أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ! أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا ؟ إِنْ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ ، مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى : الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ ، وَأَمْلَى لَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ . سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾^(٥) ، وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ، وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ . فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ ، وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ . فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ

(٢) آل عمران ١١١ ، ١١٢ .

(٤) المائدة ٨٢ .

(١) الحشر ٢ - ٤ .

(٣) المائدة ٨٠ ، ٨١ .

(٥) محمد ٢٢ - ٢٦ .

يَلْقَوْنَهُ ، بما أخلفوا الله ما وعَدُوهُ وبما كانوا يكذبون ﴿١﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ، فَقُلْ : لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ، وَلَنْ تَقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ، إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ ﴿٢﴾ ، وقال تعالى في ضِدِّ هَذَا : ﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ، فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ، وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ ، وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا - إِلَى قَوْلِهِ - وَلَوْ قَاتِلَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا كُتِبُوا الْأَدْبَارَ ، ثُمَّ لَا يَمُجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ، سَنَةِ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ ﴿٣﴾ .

وتوليتهم الأدبار : ليس مما نهوا عنه ، ولكن هو من جزاء أعمالهم ، وهذا باب واسع .

فصل

[شروط الأنفس]

١١ - وإذا كانت السيئات التي يعملها الإنسان قد تكون من جزاء سيئات تقدمت - وهي مضرّة - جاز أن يقال : هي مما أصابه من السيئات ، وهي بذنوب تقدمت .

وعلى كل تقدير : فالذنوب التي يعملها : هي من نفسه ، وإن كانت مقدرة عليه ؛ فإنه إذا كان الجزاء - الذي هو مسبب عنها من نفسه - فعله الذي هو ذلك الجزاء من نفسه بطريق الأولى . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته : « نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا » .

(٢) التوبة ٨٣ .

(١) التوبة ٧٥ - ٧٧ .

(٣) الفتح ٢٠ - ٢٣ .

وقال له أبو بكر رضى الله عنه : عَلمَنى دعاء ، فقال : « قل : اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رَبَّ كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت . أعوذ بك من شر نفسى ، وشر الشياطين وشرَكه ، وأن أقترب على نفسى سوءاً ، أو أجُرّه إلى مسلم — قُلْهُ : إذا أصبحت ، وإذا أمسيت ، وإذا أخذت مضجعك » .

فقد بيّن أن قوله « فمن نفسك » يتناول العقوبات على الأعمال ، ويتناول الأعمال ، مع أن السكل بقدر الله .

فصل

[الرد على القدرية]

١٢ — وليس للقدرية أن يحتجوا بالآية لوجوه :

منها : أنهم يقولون : فعل العبد - حسنة كان ، أو سيئة - هو منه - لامن الله ؛ بل الله قد أعطى كل واحد من الامتطاعة ما يفعل به الحسنات والسيئات ؛ لكن هذا عندهم : أحدث إرادة فعل بها الحسنات . وهذا أحدث إرادة فعل بها السيئات ؛ وليس واحد منهما من إحداث الرب عندهم . والقروآن قد فرق بين الحسنات والسيئات ، وهم لا يفرقون فى الأعمال بين الحسنات والسيئات ، إلا من جهة الأمر . لامن جهة كون الله خلق فيه الحسنات دون السيئات : بل هو عندهم لم يخلق لاهذا ولا هذا .

ولكن منهم من يقول : بأنه يحدث من الأعمال الحسنة والسيئة : ما يكون جزاء . كما يقول أهل السنة .

لكن على هذا : فليست عندهم كل الحسنات من الله . ولا كل السيئات بل بعض هذا ، وبعض هذا .

الثانى : أنه قال : « كل من عند الله » فجعل الحسنات من عند الله ، كما جعل

السيئات من عند الله ، وهم لا يقولون بذلك في الأعمال . بل في الجزاء .
 وقوله بعد هذا : ﴿ ما أصابك من حسنة - ومن سيئة ﴾ مثل قوله :
 ﴿ وإن تصبهم حسنة ﴾ وقوله : « إن تصبهم سيئة » .

الثالث : أن الآية بها : النعم ، والمصائب - كما تقدم - وليس للقدرة
 الحجة أن تحتج بهذه الآية على نفى أعمالهم التي استحقوا بها العقاب ، فإن قوله :
 « كل من عند الله » هو النعم والمصائب ، ولأن قوله : « ما أصابك من حسنة
 فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » حجة عليهم ، وبيان أن الإنسان
 هو فاعل السيئات ، وأنه يستحق عليها العقاب ، والله ينعم عليه بالحسنات - عملها
 وجزائها - فإنه إذا كان ما أصابهم من حسنة فهو من الله - فالنعم من الله سواء
 كانت ابتداءً أو كانت جزاء . وإذا كانت جزاء - وهى من الله - : فالعمل
 الصالح الذى كان سببها : هو أيضاً من الله أنعم بهما الله على العبد ، وإلا فلو كان
 هو من نفسه كما كانت السيئات من نفسه - لكان كل ذلك من نفسه ،
 والله تعالى قد فرق بين النوعين في الكتابة والسنة . كما في الحديث الصحيح
 الإلهى ، عن الله - « يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً
 فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك ، فلا يلومنَّ إلا نفسه » وقال تعالى ﴿ أَوْ لَمَّا
 أَصَابَكُمْ مِصْيَبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا . قَاتِمٌ : أُنْىَ هَذَا ؟ قُلْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ
 أَنْفُسِكُمْ ﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿ وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم
 يقنطون ﴾ ^(٢) وقال تعالى : ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدي
 الناس ، لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ^(٣) وقال تعالى ﴿ وما ظلمناهم
 ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ ^(٤) ، وقال تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم
 الظالمين ﴾ ^(٥) وقال تعالى : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمِينَ ﴾ ^(٦)

(٣) الروم ٤١ .

(٢) الروم ٢٦ .

(١) آل عمران ١٦٥ .

(٦) ص ٨٥ .

(٥) الزخرف ٧٦ .

(٤) هود ١٠١ .

وقال تعالى للمؤمنين : ﴿ وَلَسٰنَ اللّٰهِ حَبِيبٌ اِلَيْكُمْ الْاِيْمَانُ وَزَيْنَتْ فِى قُلُوْبِكُمْ وَكَرَّهَتْ اِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ اُولٰٓئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ ^(١) ، وقد أمرُوا أَنْ يَقُولُوا فِى الصَّلَاةِ : ﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ، غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ .

فصل

[لا إشكال فى الآية]

١٣ - وقد ظن طائفة : أن فى الآية إشكالا ، أو تناقضا فى الظاهر ، حيث قال : « كل من عند الله » ثم فرّق بين الحسنات والسيئات ، فقال : « ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » ، وهذا من قلة فهمهم ، وعدم تدبرهم الآية ، وليس فى الآية تناقض ، لافى ظاهرها ولا فى باطنها ، لافى لفظها ولا فى معناها ، فإنه ذكر عن المناقذين ، والذين فى قلوبهم مرض ، الناكسين عن الجهاد ما ذكره بقوله : ﴿ أَيْمَانُكُمْ يُبَدِّلُكُمْ مِنَ الْمَوْتِ وَلَوْ كُنْتُمْ فِى بَرْجٍ مُّشِيدَةٍ ، وَإِنْ تُصِيبْكُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا : هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا : هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ ^(٢) هذا يقولونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى بسبب ما أمرتنا من دينك والرجوع عما كنا عليه . أصابتنا هذه السيئات لأنك أمرتنا بما أوجبها . فالسيئات : هى المصائب ، والأعمال التى ظنوا أنها سبب المصائب : هو أمرهم بها .

وقولهم « من عندك » تتناول مصائب الجهاد التى توجب الهزيمة ، لأنه أمرهم بالجهاد ، وتتناول المصائب أيضا مصائب الرزق على جهة التشاؤم والتطير ، أى هذا عقوبة لنا بسبب دينك . كما كان قوم فرعون يتطيرون بموسى وبمن معه .

وكما قال أهل القرية للرسولين : ﴿إنا تطيرنا بكم﴾^(١) وكما قال الكفار من ثمود لصالح ولقومه : ﴿اطيرنا بك وعن معك﴾^(٢) فكانوا يقولون عما يصيبهم - من الحرب والزلال والجراح والقتل ، وغير ذلك مما يحصل من العدو - هو منك لأنك أمرتنا بالأعمال الموحية لذلك ، ويقولون عن هذا ، وعن المصائب السماوية : إنها منك ؛ أى بسبب طاعتك لك ، واتباعنا لدينتك : أصابتنا هذه المصائب ، كما قال تعالى : ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإنه أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة﴾^(٣) .

فهذا يتناول كل من جعل طاعة الرسول ، وفعل ما بعث به : مسبباً لشر أصابه : إما من السماء ، وإما من آدمي . وهؤلاء كثيرون .

لم يقولوا : « هذه من عندك » بمعنى : أنك أنت الذى أحدثتها ، فإنهم يعلمون أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحدث شيئاً من ذلك ، ولم يكن قولهم « من عندك » خطاباً من بعضهم لبعض ، بل هو خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم .

[قول أعداء الرسل]

١٤ — ومن فهم هذا تبين له أن قوله : « ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » ولا يناقض قوله : « كل من عند الله » ، بل هو محقق له ، لأنهم - هم ومن أشبههم إلى يوم القيامة - يجعلون ما جاء به الرسول ، والعمل به : سبباً لما قد يصيبهم من مصائب ، وكذلك من أطاعه إلى يوم القيامة .

وكان تارة يقدحون فيما جاء به ، ويقولون : ليس هذا لما أمر الله به ، ولو كان مما أمر الله به : لما جرى على أهله هذا البلاء .

وتارة لا يقدحون في الأصل ؛ لكن يقدحون في القضية للمعينة فيقولون : هذا بسوء تدبير الرسول . كما قال عبد الله بن أبي بن سلول يوم أحد - إذ كان رأيهم مع رأي النبي صلى الله عليه وسلم : أن لا يخرجوا من المدينة - فسأله صلى الله عليه وسلم ناس ممن كان له رغبة في الجهاد : أن يخرج ، فوافقهم ، ودخل بيته ولبس لأمنته . فلما لبس لأمنته ندموا . وقال للنبي صلى الله عليه وسلم : « أنت أعلم . فإن شئت أن لا نخرج ، فلا نخرج . فقال : ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمنته أن ينزعها ، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » يعني : أن الجهاد يلزم بالشروع ، كما يلزم الحج . لا يجوز ترك ما شرع فيه منه إلا عند العجز بالإحصار في الحج .

فصل

[تطهيرهم بالرسالين]

١٥ - والفسرين ذكروا في قوله : « وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك » هذا وهذا .

فعن ابن عباس ، والسدي ، وغيرهما : أنهم يقولون هذا تشاؤماً بدينه . وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . قال بسوء تدبيرك - يعني كما قاله عبد الله بن أبي وغيره يوم أحد - وهم كالذين ﴿ قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ .

فبكل حال قولهم : « من عندك » هو طعن فيما أمر الله به ورسوله : من الإيمان والجهاد ، وجعل ذلك هو الموجب للمصائب التي تصيب المؤمنون المطيعين . كما أصابهم يوم أحد . وتارة تصيب عدوهم ، فيقول الكافرون : هذا بشؤم هؤلاء . كما قال أصحاب القرية للمرسلين : « إنا تطيرنا بكم » ، وكما قال تعالى عن آل فرعون : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة ، قالوا لنا هذه . وإن تصبهم

سيئة يطيروا بموسى ومن معه ، ألا إنما طائرهم عند الله . ولكن أكثرهم لا يعلمون^(١) ، وقال الله تعالى عن قوم صالح : ﴿ قالوا أطيرنا بك وبمن معك . قال : طائرکم عند الله . بل أنتم قوم تفتنون ﴾^(٢) .

ولما قال أهل القرية ﴿ إنما تطيرنا بكم ، لئن لم تنتهوا لنرجنكم ولیمسنکم منا عذاب أليم ، قالوا : طائرکم معکم أثین ذکرتم ؟ بل أنتم قوم مسرفون ﴾^(٣) . قال الضحاک فی قوله : « ألا إنما طائرهم عند الله » يقول : الأمر من قبل الله . ما أصابکم من أمر ، فمن الله ، بما كسبت أيديکم . وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس « معايبکم » وقال قتادة : « عملکم عند الله » .

وفی رواية غير علی : عملکم عند الله « ولكنکم قوم تفتنون » أى يتلون بطاعة الله ومعصيته . رواها ابن أبى حاتم وغيره .

وعن ابن إسحاق قال : قالت الرسل : « طائرکم معکم » أى أعمالکم .

[معنى « الطائر »]

١٦ — فقد فسروا « الطائر » بالأعمال وجزائها لأنهم كانوا يقولون : إنما أصابنا ما أصابنا من المصائب بذنوب الرسل وأتباعهم .

فبين الله سبحانه . أن طائرهم — وهو الأعمال وجزاؤها — هو عند الله . وهو معهم . فهو معهم لأن أعمالهم وما قدّر من جزائها معهم كما قال تعالى : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ﴾^(٤) وهو من الله . لأن الله تعالى قدّر تلك المصائب بأعمالهم ، فمن عنده تنزل عليهم المصائب ، جزاء على أعمالهم ، لا بسبب الرسل وأتباعهم .

وفى هذا يقال : إنهم إنما يجزون بأعمالهم ، لا بأعمال غيرهم . ولذلك قال

(٢) النمل ٤٧ .

(١) الأعراف ١٣١ .

(٤) الإسراء ١٣ .

(٣) يس ١٨ ، ١٩ .

في هذه الآية - لما كان المنافقون والكفار ومن في قلبه مرض يقول : هذا الذي أصابنا هو بسبب ما جاء به محمد ، عقوبة دينية وصل إلينا - بين سبحانه : أن ما أصابهم من المصائب إنما هو بذنوبهم .

ففي هذا ردّ على من أعرض عن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لثلاث صيغته تلك المصائب ، وعلى من انتسب إلى الإيمان بالرسول ، ونسبها إلى فعل ما جاء به الرسول ، وعلى ما أصابته مع كفره بالرسول ، ونسبها إلى ما جاء به الرسول .

فصل

[طاعة الرسول ، فتح وخير]

١٧ - والمقصود : أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم سبباً لشيء من المصائب . ولا تكون طاعة الله ورسوله قط سبباً لمصيبة ، بل طاعة الله والرسول لا تقتضي إلا جزاء أحبابها بخير الدنيا والآخرة . ولكن قد تصيب المؤمنين بالله ورسوله مصائب بسبب ذنوبهم ، لا بما أطاعوا فيه الله والرسول ، كما لحقهم يوم أحد بسبب ذنوبهم ، لا بسبب طاعتهم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

[الابتلاء]

١٨ - وكذلك ما ابتلوا به في السراء والضراء والزلال : ليس هو بسبب نفس إيمانهم وطاعتهم ، ولكن امتحنوا به ، ليتخلصوا مما فيهم من الشر ، وفتنوا به كما يفتن الذهب بالنار ، ليميز طيبه من خبيثه والنفوس فيها شر ، والامتحان يحص المؤمن من ذلك الشر الذي في نفسه . قال تعالى ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس . وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين . وليحص الله الذين آمنوا ، ويمحق الكافرين ﴾ (١) قال

تعالى ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(١) ولهذا قول صالح عليه السلام لقوله « طائركم عند الله ، بل أنتم قوم تفتنون » .

[المصائب أجر للمؤمنين]

١٩ — ولهذا كانت المصائب تكفر سيئات المؤمنين ، وبالصبر عليها ترتفع درجاتهم ، وما أصابهم في الجهاد من مصائب بأيدي العدو ، فإنه يعظم أجرهم بالصبر عليها .

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما من غازية يغزون في سبيل الله ، فيسلمون ويغنمون إلا تعجلوا ثلثي أجرهم ، وإن أصيبوا وأخفقوا : ثم لهم أجرهم » .

وأما ما يلحقهم من الجوع والعطش والتعب : فذلك يكتب لهم به عمل صالح ، كما قال تعالى ﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ، ولا نصب ، ولا نحرصة في سبيل الله ولا يوطؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾^(٢) .
وشواهد هذا كثيرة .

فصل

[محمد لا يأتي - من عند نفسه - لا بنعمة ولا بمصيبة]

٢٠ — والمقصود : أن قوله « وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل : كل من عند الله » فإنهم جعلوا ما يصيبهم من المصائب بسبب ما جاءهم به الرسول ، وكانوا يقولون : النعمة التي تصيبنا هي من عند الله ، والمصيبة من عند محمد . أي بسبب دينه وما أمر به .

فقال تعالى : قل هذا وهذا من عند الله . لا من عند محمد . محمد لا يأتي
لا بنعمة ولا بمصيبة : ولهذا قال بعد هذا : « فما لهؤلاء القوم لا يكادون
يفقهون حديثاً ؟ » .

قال السدى وغيره : هو القرآن ؛ فإن القرآن إذا هم فقهوا ما فيه تبين لهم
أنه إنما أمرهم بالخير ، والعدل والصدق ، والتوحيد . لم يأمرهم بما يكون سبباً
للمصائب ، فإنهم إذا ما فهموا ما في القرآن علموا أنه لا يكون سبباً للشر مطلقاً .

وهذا مما يبين أن ما أمر الله به يعلم بالأمر به حسنه ونفعه ، وأنه مصلحة
للعباد . وليس كما يقول من يقول : قد يأمر الله العباد بما لا مصلحة لهم فيه
إذا فعلوه ، بل فيه مضرة لهم .

فإنه لو كان كذلك لكان قد يصدقه المتطهرون بالرسول وأتباعهم .

* * *

ومما يوضح ذلك أنه لما قال « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك
من سيئة فمن نفسك » قال بعدها : « وأرسلناك للناس رسولا . وكفى بالله
شهيداً » فإنه قد شهد له بالرسالة بما أظهره على يديه من الآيات والمعجزات .
وإذا شهد الله له كفى به شهيداً . ولم يضره جحد هؤلاء لرسالته ، بما ذكروه
من الشبهة التي هي عليهم لا لهم ، بما أرادوا أن يجعلوا سيئاتهم وعقوباتهم
حجة على إبطال رسالته . والله تعالى قد شهد له : أنه أرسله للناس رسولا ،
فكان ختم الكلام بهذا إبطالا لقولهم ، إن المصائب من عند الرسول .
ولهذا قال بعد هذا « من يطع الرسول فقد أطاع الله . ومن تولّى فما أرسلناك
عليهم حفيظاً » .

فصل

[إبطال قول الجهمية والجبرية]

٢١ - وكان فيما ذكره إبطال لقول الجهمية المجبرة ونحوهم ، ممن يقول :
 إن الله قد يعذب العباد بلا ذنب . وأنه قد يأمر العباد بما لا ينفعهم ، بل بما
 يضرهم ، فإن فعلوا ما أمرهم به حصل لهم الضرر ، وإن لم يفعلوه عاقبهم .
 يقولون هذا ومثله ، ويزعمون أن هذا لأنه يفعل ما يشاء .
 والقرآن يرد على هؤلاء من وجوه كثيرة ، كما يرد على المكذبين بالقدر .
 فالآية ترد على هؤلاء وهؤلاء ، كما تقدم ، مع احتجاج الفريقين بها .
 وهي حجة على الفريقين .



فإن قال نفاة القدر : إنما قال في الحسنه : « هي من الله » وفي السيئة :
 « هي من نفسك » لأنه يأمر بهذا ، وينهى عن هذا ، باتفاق المسلمين .
 قالوا : ونحن نقول : المشيئة ملازمة للأمر . فما أمر به فقد شاءه ، وما
 لم يأمر به لم يشأه . فكانت مشيئته وأمره حاضه على الطاعة دون المعصية ؛
 فلهذا كانت هذه منه دون هذه .

قيل : أما الآية : فقد تبين أن الذين قالوا : « الحسنه من عند الله ،
 والسيئة من عندك » أرادوا : من عندك يا محمد ، أى بسبب دينك ، فجعلوا
 رسالة الرسول هي سبب المصائب . وهذا غير مسأله القدر .

وإذا كان قد أريد : أن الطاعة والمعصية - مما قد قيل - كان قوله :
 « كل من عند الله » حجة عليكم كما تقدم .

وقوله بعد هذا : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن
 نفسك » لا ينافي ذلك . بل « الحسنه » أنعم الله بها وبثوابها . و « السيئة » هي

من نفس الإنسان ناشئة ، وإن كانت بقضائه وقدره ، كما قال تعالى : ﴿ من شر ما خلق ﴾^(١) فمن المخلوقات ماله شر ، وإن كان بقضائه وقدره .

وأتمّ تقولون : الطاعة والمعصية هما من إحداث الإنسان ، بدون أن يجعل الله هذا فاعلا وهذا فاعلا ، وبدون أن يخص الله المؤمن بنعمة ورحمة أطاعه بها ، وهذا مخالف للقرآن .

فصل

[الفرق بين الحسنات والسيئات]

٢٢ — فإن قيل : إذا كانت الطاعات والمعاصي مقدرة ، والنعم والمصائب مقدرة . فما الفرق : الحسنات ، التي هي النعم ، والسيئات ، التي هي المصائب ؟ فجعل هذه من عند الله ، وهذه من نفس الإنسان ؟ قيل : لفرق بينهما :

الفرق الأول : أن نعم الله وإحسانه إلى عباده يقع ابتلاء بلا سبب منهم أصلا ، فهو ينعم بالعافية والرزق والنصر وغير ذلك على من لم يعمل خيراً قط ، وينشئ للجنة خلقاً يسكنهم فضول الجنة ، وقد خلقهم في الآخرة لم يعملوا خيراً . ويدخل أطفال المؤمنين ومجانينهم الجنة برحمته بلا عمل ، وأما العقاب : فلا يعاقب أحداً إلا بعمله .

الفرق الثاني : أن الذي يعمل الحسنات . إذا عملها ، فنفس عمله الحسنات : هو من إحسان الله ، وبفضله عليه بالهداية والإيمان ، كما قال أهل الجنة : ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا . وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴾^(٢) .

وفي الحديث الصحيح : « لا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ،

نم أوفيكُم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه .

فنفس خلق الله لهم أحياء ، وجعله لهم السمع والأبصار والأفئدة ، هو من نعمته . ونفس إرسال الرسول إليهم ، وتبليغه البلاغ المبين الذي اهتموا به : هو من نعمته : وإلهامهم الإيمان ، وهدايتهم إليه ، وتخصيصهم بمزيد نعمة حصل لهم بها الإيمان دون الكافرين ، هو من نعمته : كما قال تعالى : ﴿ ولكن الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ ، وزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ . وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ . فَضَلَا مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۖ ﴾ (١) .

فجميع ما يتقلب فيه العالم من خيرى الدنيا والآخرة . هو نعمة محضة منه بلا سبب سابق يوجب لهم حقاً . ولا حول ولا قوة لهم من أنفسهم إلا به . وهو خالق نفوسهم ، وخالق أعمالها الصالحة ، وخالق الجزاء .

فقوله : « ما أصابك من حسنة فمن الله » حق من كل وجه ، ظاهراً وباطناً على مذهب أهل السنة .

وأما « السيئة » فلا تكون إلا بذنب العبد . وذنبه من نفسه . وهو لم يقل : إني لم أقدر ذلك ولم أخلقه ، بل ذكر للناس ما ينفعهم .

فصل

[الشكر والاستغفار]

٣٣ — فإذا تدبَّر العبد علم أن ما هو فيه من الحسنات من فضل الله ، فشكر الله . فزاده الله من فضله عملاً صالحاً ، ونعماً يفيضها عليه ، وإذا علم أن الشر لا يحصل له إلا من نفسه بذنوبه ، استغفر وتاب ، فزال عنه سبب الشر ،

فيكون العبد دائماً شاكراً مستغفراً ، فلا يزال الخير يتضاعف له ، والشر يندفع عنه ، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته : « الحمد لله » فيشكر الله ثم يقول « نستعينه ونستغفره » نستعينه على الطاعة ، ونستغفره من المعصية . ثم يقول « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا » فيستعيذ به من الشر الذي في النفس ، ومن عقوبة عمله : فليس الشر إلا من نفسه ومن عمل نفسه . فيستعيذ الله من شر النفس أن يعمل بسبب سيئاته الخطايا ، ثم إذا عمل استعاذ بالله من سيئات عمله ، ومن عقوبات عمله فاستعان على الطاعة وأسبابها . واستعاذ به من المعصية وعقابها .

فعلم العبد بأن ما أصابه من حسنة فمن الله ، وما أصابه من سيئة فمن نفسه . يوجب له هذا وهذا . فهو سبحانه فرّق بينهما هنا ، بعد أن جمع بينهما في قوله : « قل كل من عند الله » .

فبين أن الحسنات والسيئات : النعم والمصائب ، والطاعات والمعاصي . على قول من أدخلها في « من عند الله » .

ثم بين الفرق الذي ينتفعون به . وهو أن هذا الخير من نعمة الله ، فاشكروه يزدكم . وهذا الشر من ذنوبكم فاستغفروه يدفعه عنكم .

قال الله تعالى : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم . وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ ^(١) وقال تعالى ﴿ الر كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير . أن لا تعبدوا إلا الله : إني أنقذ لكم منه نذير وبشير ، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ ^(٢) .

[التأسى بالسعداء]

٢٤ - والمذنب إذا استغفر ربه من ذنبه فقد تأسى بالسعداء من الأنبياء

والمؤمنين كآدم وغيره وإذا أصرّ واحتج بالقدر . فقد تأسى بالاشقياء ،
كإبليس ومن اتبعه من الغاوين .

فكان من ذكره : أن السيئة من نفس الإنسان بذنوبه ، بعد أن ذكر :
أن الجميع من عند الله ، تنقيهاً عن الاستغفار والتوبة ، والاستعاذة بالله من
شر نفسه وسيئات عمله والدعاء بذلك في الصباح والمساء ، وعند المنام ،
كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك أبا بكر الصديق ، أفضل الأمة ،
حيث علمه أن يقول : « اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ،
أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسي
سوءاً ، أو أجتره إلى مسلم » .

فيستغفر مما مضى . ويستعيز مما يستقبل . فيكون من حزب السعداء .
وإذا علم أن الحسنه من الله - الجزاء والعمل - سأل أن يعينه على فعل
الحسنات بقوله ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ . وبقوله : ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾
وقوله : ﴿ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾^(١) ونحو ذلك .

وأما إذا أخبر أن الجميع من عند الله فقط ، ولم يذكر الفرق : فإنه يحصل
من هذه التسوية ، إعراض العاصي والمذنب عن ذم نفسه ، وعن التوبة من
ذنوبها ، والاستعاذة من شرها . بل وقام في نفسه ، أن يحتج على الله بالقدر :
وتلك حجة داحضة ، لا تنفعه : بل تزيده عذاب وشقاء ، كما زادت إبليس لما
قال : ﴿فبما أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم﴾^(٢) وقال ﴿رب بما
أغويتني لأزيننّ لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين﴾^(٣) :

وكالذين يقولون يوم القيامة : ﴿لو أن الله هدانا لكنت من المتقين﴾^(٤)
وكالذين قالوا : ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾^(٥) .

(١) آل عمران ٨ . (٢) الأعراف ١٦ . (٣) الحجر ٣٩ .

(٤) الزمر ٥٧ . (٥) الأنعام ١٤٨ .

فن احتج بالتقدر على ما فعله من ذنوبه ، وأعرض عما أمر الله ، من التوبة والاستغفار ، والاستعانة بالله ، والاستعاذة به ، واستهدائه : كان من أخسر الناس في الدنيا والآخرة . فهذا من فوائد ذكر الفرق بين الجميع .

فصل

[مضاعفة الحسنات]

٢٥ — الفرق الثالث — أن الحسنة يضاعفها وينميتها ويثيبُ على الهم بها والسيئة لا يضاعفها ، ولا يؤاخذ على الهم بها . فيعطى صاحب الحسنة من الحسنات فوق ما عمل . وصاحب السيئة لا يجزيه إلا بقدر عمله . قال تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ، وهم لا يظلمون ﴾ (١) .

الفرق الرابع — أن الحسنة مضافة إليه ، لأنه أحسن بها من كل وجه ، كما تقدم . فما من وجه من وجوها إلا وهو يقتضى الإضافة إليه . وأما السيئة فهو إنما يخالفها بحكمة . وهي باعتبار تلك الحكمة من إحصائه . فإن الرب لا يفعل سيئة قط . بل فعله كله حسن وحسنات . وفعله كله خير .

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعاء الاستفتاح : « والخير بيدك ، والشر ليس إليك » فإنه لا يخلق شراً محضاً . بل كل ما يخلقه ففيه حكمة . هو باعتبارها خير . ولكن قد يكون فيه شر لبعض الناس . وهو شر جزئى إضافى . فأما شر كل ، أو شر مطلق ، فالرب منزّه عنه . وهذا هو الشر الذى ليس إليه .

وأما الشر الجزئى الإضافى : فهو خير باعتبار حكيمته . ولهذا لا يضاف

الشر إليه مفرداً قط . بل إما أن يدخل في عموم المخلوقات ، كقوله : ﴿ وخلق كل شيء ﴾ ^(١) .

ولإما أن يضاف إلى السبب كقوله : ﴿ من شر ما خلق ﴾ ^(٢) .
ولإما أن يحذف فاعله ، كقول الجن : ﴿ وإنا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشداً ﴾ ^(٣) .



[التقدر بين المغالين فيه والمكذبين به]

٣٦ — وهذا الموضع ضل فيه فريقان من الناس الخائضين في القدر بالباطل :
فرقة كذبت بهذا ، وقالت : إنه لا يخلق أفعال العباد ، ولا يشاء كل ما يكون ،
لأن الذنوب قبيحة ، وهو لا يفعل القبيح ، وإرادتها قبيحة ، وهو لا يريد القبيح .
وفرقة لما رأت أنه خالق هذا كله ولم تؤمن أنه خلق هذا الحكمة ، بل
قالت إذا كان يخلق هذا : فيجوز أن يخلق كل شر ، ولا يخلق شيئاً للحكمة ،
وما ثم فعل تنزه عنه ، بل كل ما كان ممكناً جاز أن يفعله . وجوزوا : أن
يأمر بكل كفر ومعصية ، وينهى عن كل إيمان وطاعة ، وصدق وعدل ، وأن
يعذب الأنبياء وينعم الفراعنة والمشركين ، وغير ذلك ، ولم يفرقوا بين مفعول
ومفعول .

وهذا منكرو من القول وزور ، كالأول . وقال تعالى : ﴿ أم حسب الذين
اجترحوا السيئات : أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم
ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون ﴾ ^(٤) ، وقال تعالى : ﴿ أفنجعل المسلمين كالجrimين ؟
ما لكم كيف تحكمون ﴾ ^(٥) وقال تعالى : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات
كالمفسدين في الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ ^(٦) ، ونحو ذلك ، يوجب

(١) الفرقان ٢ . (٢) الفلق ٢ . (٣) الجن ١٠ .
(٤) الجاثية ٢١ . (٥) القلم ٣٥ ، ٣٦ . (٦) س ٢٨ .

أن يفوق بين الحسنات والسيئات ، وبين المحسن والمسيء . وأن من جاوز عليه التسوية بينهما ، فقد أتى بقول منكر ، وزور ينكر عليه .

[الحكمة في تعذيب الحيوان]

٢٧ - وليس إذا خلق ما يتأذى به بعض الحيوان : لا يكون فيه حكمة ، بل فيه من الحكمة والرحمة ما يخفى على بعضهم مما لا يقدر قدره إلا الله .
وليس إذا وقع في المخلوقات ما هو شر جزئي بالإضافة ، يكون شرًا كليًا عامًا ، بل الأمور العامة الكلية لا تكون إلا خيرًا ومصلحة للعباد ، كالطير العام وكإرسال رسول عام .

وهذا مما يقتضى : أنه لا يجوز أن يؤيد الله كذابًا عليه بالمعجزات التي أيد بها أنبياء الصادقين ، فإن هذا شر عام للناس ، يضلهم ويفسد عليهم دينهم ودنياهم وآخرتهم .
وليس هذا كالمالك الظالم ، والعدو . فإن المالك الظالم : لا بد أن يدفع الله من به الشر أكثر من ظلمه .

وقد قيل : ستون سنة بإمام ظالم ، خير من ليلة واحدة بلا إمام .
وإذا قدر كثرة ظلمه ، فذاك ضرر في الدين ، كالمصائب تكون كفارة لذنوبهم ويثابون عليها ، ويرجعون فيها إلى الله ، ويستغفرونه ويتوبون إليه ، وكذلك ما يسلط عليهم من العدو .

وأما من يكذب على الله ، ويقول - أى يدعى - أنه نبي : فلو أيد الله تأييد الصادق ، للزم أن يسوى بينه وبين الصادق ، فيستوى الهدى والضلال ، والخير والشر ، وطريق الجنة وطريق النار ، ويرتفع التمييز بين هذا وهذا . وهذا ما يوجب الفساد العام للناس في دينهم ودنياهم وآخرتهم .

ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتال من يقاتل على الدين الفاسد

من أهل البدع ، كالخوارج . وأمر بالصبر على جور الأئمة ، ونهى عن قتالهم والخروج عليهم ، ولهذا قد يمكن الله كثيراً من الملوك الظالمين مدة .

وأما المتنبتون الكذابون : فلا يطيل تمكينهم . بل لابد أن يهلكهم لأن فسادهم عام في الدين والدنيا والآخرة . قال تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل : لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿ أم يقولون افترى على الله كذباً . فإن يشأ الله نختم على قلوبك ﴾ ^(٢) فأخبر : أنه - بتقدير الافتراء - لابد أن يعاقب من افترى عليه .

فصل

[الشر الخاص ، والعام]

٢٨ - وهذا الموضع مما اضطرب فيه الناس . فاستدلت القدرية النفاة والمجبرة على أنه إذا جاز أن يضل شخصاً : جاز أن يضل كل الناس ، وإذا جاز أن يعذب حيواناً بلا ذنب ولا عوض : جاز أن يعذب كل حي بلا ذنب ولا عوض . وإذا جاز عليه أن لا يعين واحداً من أمره على طاعة أمره ، جاز أن لا يعين كل المخلوق . فلم يفرق الطائفتان بين الشر الخاص والعام وبين الشر الإضافي والشر المطلق . ولم يجعلوا في الشر الإضافي حكمة يصير بها من قسم الخير .

ثم قال النفاة : وقد علم أنه منزّه عن تلك الأفعال . فإننا لو جوزنا عليه هذا لجوزنا عليه تأييد الكذاب بالمعجزات ، وتعذيب الأنبياء وإكرام الكفار ، وغير ذلك ، مما يستعظم العقلاء إضافته إلى الله تعالى . فقالت النتيجة من الجهمية المجبرة : بل كل الأفعال جائزة عليه ، كما جاز ذلك على الخاص : وإنما يعلم أنه لا يفعل بما لا يفعل ، أو بفعل ما يعمل : بالخير ، خير الأنبياء عنه . وإلا فمهما قدر ؛ جاز أن يفعله . وجاز أن لا يفعله ليس في نفس

الأمر سبب ولا حكمة ، ولا صفة تقتضى التخصيص ببعض الأفعال دون بعض بل ليس إلا مشيئة ، نسبتها إلى جميع الحوادث سواء . ترجح أحد المتماثلين بلا مرجح .

فقليل لهم : فيجوز تأييد الكذاب بالمعجز . فلا يبقى المعجز دليلاً على صدق الأنبياء . فلا يبقى خبر نبي يعلم به الفرق . فيلزم - مع الكفر بالأنبياء - أن لا يعلم الفرق ، ولا يسمع ولا يعقل .

[المعجزات]

٢٩ - فاحتملوا الفرق بين المعجزات وغيرها . بأن تجوز إتيان الكذاب بالمعجزات يستلزم تعجيز البارى تعالى عما به يفوق بين الصادق والكاذب . أو لأن دلالتها على الصدق معلوم بالاضطرار . كما قد بسط الكلام على ذلك فى غير هذا الموضع . وبين خطأ الطائفين . وأن هؤلاء الذين اتبعوا جهماً فى الخبر - ونفوا حكمة الله ورحمته ، والأسباب التى بها يفعل ، وما خلقه من القوى وغيرها - هم مبتدعة مخالفون للكتاب والسنة وإجماع السلف ، مع مخالفتهم لصريح المعقول . كما أن القدرية النفاة : مخالفون للكتاب والسنة وإجماع السلف ، مع مخالفتهم لصريح المعقول .

فصل

والمقصود هنا الكلام على قوله : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ وأن هذه تقتضى : أن العبد لا يزال شاكراً مستغفراً .

[إضافة الشر إلى الله]

٣٠ - وقد ذكر : أن الشر لا يضاف إلى الله ، إلا على أحد الوجوه الثلاثة . وقد تضمنت الفاتحة للأقسام الثلاثة ، هو سبحانه : الرحمن الذى وسعت

رحمته كل شيء . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها » وقد سبقت وغلبت رحمته غضبه ، وهو الغفور الودود ، الحليم الرحيم .
فإرادته : أصل كل خير ونعمة ، وكل خير ونعمة فمنه ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ (١) .

وقد قال صبحانه : ﴿ نبي عبادي : أتى أنا الغفور الرحيم ﴾ ثم قال : ﴿ وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم ﴾ (٣) فالمغفرة والرحمة من صفاته المذكورة بأسمائه . فهي من موجب نفسه المقدسة ، ومقتضاها ولوازمها .

وأما العذاب : فمن مخلوقاته ، الذي خلقه بحكمة ، هو باعتبارها حكمة ورحمة ، فالإنسان لا يأتيه الخير إلا من ربه وإحسانه وجوده . ولا يأتيه الشر إلا من نفسه . فما أصابه من حسنة : فمن الله . وما أصابه من سيئة : فمن نفسه .



[خطاب الرسول في القرآن]

٣١ - وقوله : « وما أصابك » إما أن تكون كاف الخطاب له صلى الله عليه وسلم - كما قال ابن عباس وغيره - وهو الأظهر . لقوله بعد ذلك : ﴿ وأرسلناك للناس رسولا ﴾ .

وإما أن تكون لكل واحد من الآدميين ، كقوله : ﴿ يا أيها الإنسان ما غررك بربك الكريم ﴾ (٤) .

لكن هذا ضعيف ، فإنه لم يتقدم هنا ذكر الإنسان ولا مكانه . وإنما تقدم ذكر طائفة قالوا ما قالوه . فلو أريد ذكرهم : ل قيل : « ما أصابهم من حسنة فمن الله وما أصابهم من سيئة » .

لكن خوطب الرسول بهذا ، لأنه سيد ولد آدم . وإذا كان هذا حكمه كان هذا حكم غيره بطريق الأولى والأخرى . كما في مثل قوله : ﴿ اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ ^(١) وقوله تعالى : ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ ^(٢) وقوله : ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك . فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ﴾ ^(٣) .

ثم هذا الخطاب نوعان : نوع يختص لفظه به . لكن يتناول غيره بطريق الأولى ، كقوله : ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ، تبغى مرضاة أزواجك ﴾ ؟ ثم قال : ﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ ^(٤) . ونوع : قد يكون خطابه به خطاباً لجميع الناس ، كما يقول كثير من المفسرين : الخطاب له . والمراد غيره .

وليس المعنى أنه لم يخاطب بذلك ، بل هو المقدم . فالخطاب له خطاب لجميع الجنس البشري ، وإن كان هو لا يقع منه ما نهى عنه . ولا يترك ما أمر به . بل هذا يقع من غيره . كما يقول ولي الأمر للأمر : سافر غداً إلى المكان الفلاني . أى أنت ومن معك من العسكر . وكما ينهى أعز من عنده عن شيء . فيكون نهياً لمن دونه . وهذا معروف من الخطاب .

فقوله : « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » الخطاب له صلى الله عليه وسلم . وجميع الخلق داخلون في هذا الخطاب بالعموم ، وبطريق الأولى . بخلاف قوله : « وأرسلناك للناس رسولا » فإن هذا له خاصة . ولكن من يبلغ عنه يدخل في معنى الخطاب . كما قال صلى الله عليه وسلم : « بلغوا عني ولو آية » وقال : « نَصَّرَ الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه » وقال : « ليبلغ الشاهد الغائب » وقال : « إن العلماء ورثة الأنبياء »

(٢) الزمر ٦٥ .

(١) الأحزاب ١ .

(٤) التحريم ١ ، ٢ .

(٣) يونس ٩٤ .

وقد قال تعالى في القرآن : ﴿ وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ (١) .

* * *

[أفعال الله الحسنة]

٣٢ — والمقصود هنا : أن « الحسنة » مضافة إليه سبحانه من كل وجه و « السيئة » مضافة إليه لأنه خلقها كما خالق « الحسنة » فلهذا قال : « كل من عند الله » . ثم إنه إنما خلقها لحكمة . ولا تضاف إليه من جهة أنها سيئة ، بل تضاف إلى النفس التي تفعل الشر بها لا لحكمة . فستحق أن يضاف الشر والسيئة إليها . فإنها لا تقصد بما تفعله من الذنوب خيراً ، يكون فعله لأجله أرجح . بل ما كان هكذا فهو من باب الحسنات . ولهذا كان فعل الله حسناً ، لا يفعل قبيحاً ولا سيئاً قط .

وقد دخل في هذا سيئات الجزاء والعمل ، لأن المراد بقوله : « ما أصابك من حسنة - ومن سيئة » النعم والمصائب ، كما تقدم . لكن إذا كانت المصيبة من نفسه - لأنه أذنب - فالذنب من نفسه بطريق الأولى . فالسيئات من نفسه بلا ريب ، وإنما جعلها منه مع الحسنة بقوله : « كل من عند الله » كما تقدم . لأنها لا تضاف إلى الله مفردة ، بل إما في العموم ، كقوله : « كل من عند الله » . وكذلك الأسماء التي فيها ذكر الشر ، لا تذكر إلا مقرونة ، كقولنا « الضار النافع ، الملعون المانع ، العز المذل » أو مقيدة ، كقوله : ﴿ إنا من المجرمين منتقمون ﴾ (٢) .

وكل ما خلقه - مما فيه شر جزئي إضافي - ففيه من الخير العام والحكمة والرحمة أضعاف ذلك .

مثل : إرسال موسى إلى فرعون ، فإنه حصل به التكذيب والهلاك لفرعون وقومه ، وذلك شر بالإضافة إليهم ، لكن حصل به - من النفع العام للخلق إلى

(٢) السجدة ٢٢ .

(١) الأنعام ١٩ .

يوم القيامة ، والاعتبار بقصة فرعون - ما هو إلا خير عام . فانتفع بذلك
أضعاف أضعاف . من استضرَّ به . كما قال تعالى : ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم
فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ ^(١) وقال تعالى بعد ذكر
قصته : ﴿ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ ^(٢) .

وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم شقَّى برسائله طائفة من مشركي العرب
وكفار أهل الكتاب ، وهم الذين كذبوه ، وأهلكهم الله تعالى بسببه ،
ولكن سَعِدَ بها أضعاف أضعاف هؤلاء .

ولذلك من شقَّى به من أهل الكتاب كانوا مبدئين محرفين قبل أن
يبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، فأهلك الله بالجهاد طائفة . واهتدى به
من أهل الكتاب أضعاف أضعاف أولئك .

والذين أذلهم الله من أهل الكتاب بالقهر والصفار ، أو من المشركين
الذين أحدث فيهم الصفار ، فهؤلاء كان قهرهم رحمة لهم ، لئلا يعظم كفرهم ،
ويكثر شرهم .

ثم بعدهم حصل من الهدى والرحمة لغيرهم ما لا يحصيهم إلا الله . وهم
دائماً يهتدى منهم ناس من بعد ناس ببركة ظهور دينه بالحجة واليد .

فالمصلحة بإرساله وإعزازه ، وإظهار دينه ، فيها من الرحمة التي حصلت
بذلك ما لا نسبة لها إلى ما حصل بذلك لبعض الناس من شر جزئى إضافي ،
لما في ذلك من الخير والحكمة أيضاً ، إذ ليس فيما خلقه الله سبحانه شرٌّ محض
أصلاً ، بل هو شر بالإضافة .

فصل

[الحسنات أمور وجودية]

٣٣ - الفرق الخامس : أن ما يحصل للإنسان من الحسنات التي يعملها كلها أمور وجودية . أنعم الله بها عليه ، وحصلت بمشيئة الله ورحمته وحكمته وقدرته وخلقه ، ليس في الحسنات أمر عدى غير مضاف إلى الله ، بل كلها أمر وجودى . وكل موجود وحادث فالله هو الذى يحدده .

وذلك : أن الحسنات إما فعل مأمور به ، أو ترك منهى عنه . والترك : أمر وجودى . فترك الإنسان لما نهى عنه ، ومعرفته بأنه ذنب قبيح ، وبأنه سبب للعذاب ، وبفضه وكراهته له ، ومنع نفسه منه إذا هويته ، واشتتهه وطلبته . كل هذه أمور وجودية ، كما أن معرفته بأن الحسنات كالعدل والصدق - حسنة ، وفعله لها أمور وجودية .

ولهذا إنما يثاب الإنسان على فعل الحسنات إذا فعلها محباً لها بنية وقصد فعلها ابتغاء وجه ربه ، وطاعة لله ولرسوله ، ويثاب على ترك السيئات إذا تركها بالكراهة لها ، والامتناع منها . قال تعالى : ﴿ ولكن الله حبيب إليكم الإيمان ، وزينه في قلوبكم ، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون ﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ ^(٢) وقال تعالى : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ ^(٣) .

وفي الصحيحين عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله . ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه - كما يكره أن يلقى في النار » .

وفي السنن عن البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أوثق عرى الإيمان : الحب في الله ، والبغض في الله » .

وفيها عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « من أحبَّ الله ، وأبغض الله ، وأعطى الله ، ومنع الله ، فقد استكمل الإيمان » .

وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ؛ وذلك أضعف الإيمان » .

وفي الصحيح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه - لما ذكر الخلف - قال : « من جاهدكم بيديه فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » . وقد قال تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم : إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله . كفرنا بكم وبدّا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً ، حتى تؤمنوا بالله وحده ، إلا قول إبراهيم لأبيه : لأستغفرنَّ لك ، وما أملك لك من الله من شيء ﴾ ^(١) .

وقال على لسان الخليل : ﴿ إني براء مما تعبدون ، إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ﴾ ^(٢) وقال : ﴿ أفأرى ما كنتم تعبدون أنتم وآباءكم الأقدمون ؟ فإنهم عدوا لي ، إلا رب العالمين ﴾ ^(٣) وقال : ﴿ فلما أفلت ، قال يا قوم إني برىء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ ^(٤) .

فهذا البغض والعداوة والبراءة مما يعبد من دون الله ومن عابديه : هي أمور موجودة في القلب ، وعلى اللسان والجوارح ، كما أن حب الله وموالاته

(٢) الزخرف ٢٦ ، ٢٧ .

(١) المجنة ٤ .

(٤) الأنعام ٧٨ ، ٧٩ .

(٣) النمر ٧٥ - ٧٧ .

وموالاة أوليائه : أمور موجودة في القلب ، وعلى اللسان والجوارح وهي تحقيق قول : « لا إله إلا الله » ، وهو إيماءات تأليه القلب لله حباً خالصاً ودلاً صادقاً . ومنع تأليهه لغير الله ، وبغض ذلك وكراهته ، فلا يعبد إلا الله . ويجب أن يعبد ويغض عبادة غيره . ويجب التوكل عليه وخشيته ودعائه وبغض التوكل على غيره وخشيته ودعائه .

فهذه كلها أمور موجودة في القلب ، وهي الحسنات التي يثيب الله عليها . وأما مجرد عدم السيئات ، من غير أن يعرف أنها سيئة ، ولا يكرهها ، بل لا يفعلها لكونها لم تخطر بباله ، أو تخطر كما تخطر الجمادات التي لا يحجب ولا يبغضها - فهذا لا يثاب على عدم ما يفعله من السيئات ، ولكن لا يعاقب أيضاً على فعلها ، فكأنه لم يفعلها ، فهذا تكون السيئات في حقه بمنزلتها في حق الطفل والمجنون والبهيمة ، لا ثواب ولا عقاب .

ولكن إذا قامت عليه الحجة بعلمه بتحريمها ، فإن لم يعتقد تحريمها ويكرهها وإلا عوقب على ترك الإيمان بتحريمها .

فصل

[هل الترك أمر وجودي أو عدمي]

٣٤ - وقد تنازع الناس في الترك : هل هو أمر وجودي أو عدمي ؟ والأكثرون على أنه وجودي .

وقالت طائفة - كأبي هاشم الجبائي - إنه عدمي وأن المأمور يعاقب على مجرد عدم الفعل ، لا على تركه يقوم بنفسه . ويسمون « الذمّية » لأنهم رتبوا الذم على العلم المحض .

الأكثرون يقولون : الترك أمر وجودي . فلا يثاب من ترك محظور إلا على ترك يقوم بنفسه . وتارك الأمور : إنما يعاقب على ترك يقوم بنفسه ، وهو أن يأمره الرسول صلى الله عليه وسلم بالفعل فيمتنع . فهذا الامتناع أمر وجودي .

ولذلك فهو يشتغل عما أمر به بفعل ضده ، كما يشتغل عن عبادة الله وحده بعبادة غيره ، فيعاقب على ذلك .

[الإنسان إما عابد لله أو عابد للشيطان]

٣٥ — ولهذا كان كل من لم يعبد الله وحده فلا بد أنه يكون عابداً لغيره يعبد غيره فيكون مشركاً . وليس في بني آدم قسم ثالث ، بل إما واحد ، أو مشرك ، أو من خلط هذا بهذا كالمبدلين من أهل الملل ، والنصارى ومن أشبههم من الضلال المنسحقين إلى الإمام . قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا ، وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ ^(١) وقد قال تعالى : ﴿ إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ ^(٢) لما قال إبليس : ﴿ لَأَزِيدَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ ^(٣) قال تعالى : ﴿ إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ .

فإبليس لا يغوى المخلصين ولا سلطان له عليهم ، إنما سلطانه على الغاوين . وهم الذين يتولونه ، وهم الذين به مشركون .

وقوله : « الذين يتولونه والذين هم به مشركون » صفتان لموصوف واحد ، فكل من تولاه فهو به مشرك ، وكل من أشرك به فقد تولاه .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ؟ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنْ اعْبُدُونِي . هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ ^(٤) .

وكل من عبد غير الله فإنما يعبد الشيطان ، وإن كان يظن أنه يعبد الملائكة والأنبياء . وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ مِنْهُمْ جَمِيعًا ، ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ : أَهْؤُلَاءِ

(١) النحل ٩٨ - ١٠٠ . (٢) الحجر ٤٢ . (٣) الحجر ٢٩ ، ٤٠ .

(٤) يس ٦٠ ، ٦١ .

إياكم كانوا يعبدون؟ قالوا: سبحانك! أنت ولهمنا من دونهم . بل كانوا يعبدون الجن . أكثرهم بهم مؤمنون ^(١) .

ولهذا يتمثل الشياطين ^(٢) لمن يعبد الملائكة والأنبياء والصالحين ، ويخاطبونهم فيظنون أن الذى خاطبهم ملك أو نبي ، أو ولي . وإنما هو شيطان ، جعل نفسه ملكا من الملائكة ، كما يصيب عبّاد الكواكب وأصحاب العزائم والطلسمات يسمون أسماء ، يقولون : هى أسماء الملائكة ، مثل ميظرون وغيره : وإنما هى أسماء الجن .

وكذلك الذين يدعون الخلقين من الأنبياء والأولياء والملائكة قد يتمثل لأحدهم من يخاطبه ، فيظهه النبي . أو الصالح الذى دعاه . وإنما هو شيطان تصور فى صورته ، أو قال : أنا هو ، لمن لم يعرف صورة ذلك المدعو . وهذا الشر يجرى لمن يدعو الخلقين ، من النصارى ومن المنتسبين إلى الإسلام يدعونهم عند قبورهم ، أو مغيبهم ، ويستغيثون بهم . فبأنبيهم من يقول : إنه ذلك المستغاث به فى صورة آدمى راكباً ، وإما غير راكب . فيعتقد المغيث أنه ذلك النبي ، والصالح ، أو أنه سره أو روحانيته ، أو رقيقته تشكّل . أو يقول أنه ملك جاء على صورته ، وإنما هو شيطان يغويه ، لكونه أشرك بالله ودعا غيره الميت من دونه . فصار للشيطان عليه سلطان بذلك الشرك . فظن أنه يدعو النبي ، أو الصالح ، أو الملك وأنه هو الذى شفع له ، أو هو الذى أجاب دعوته . وإنما هو الشيطان ، ليزيده غلوّاً فى كفره وضلاله .

فكل من لم يعبد الله مخلصاً له الدين ، فلا بد أن يكون مشركاً عابداً لغير الله . وهو فى الحقيقة : عابد للشيطان .

(١) سبأ ٤٠ ، ٤١ .

(٢) الشيطان الذى يقول عنه الإمام ابن تيمية إنه يتمثل أو يسمع صوته إنما هو شيطان الإنس . أما شيطان الجن فقد قال الله تعالى عنه : (إنه يراكم هو وقييله من حيث لا ترونهم) .

فكل واحد من بنى آدم إما عابد للرحمن، وإما عابد للشيطان . قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ تَقْبِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيُضِدُّوهُمْ عَنْ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ . حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ : يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ . وَلَنْ يَنْفَعَكَ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا . إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝﴾ ^(٢) .

فبنو آدم منحصرون فى الأصناف الستة : وبسط هذا له موضع آخر .

فصل

والمقصود هنا : أن الثواب والعقاب إنما يكون على عمل وجودى بفعل الحسنات، كعبادة الله وحده ، وترك السيئات، كترك الشرك - أمر وجودى . وفعل السيئات ، مثل ترك التوحيد ، وعبادة غير الله - أمر وجودى .

قال تعالى : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا . وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾ ^(٣) وقال تعالى : ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۝﴾ ^(٤) وقال تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۝﴾ ^(٥) وقال تعالى : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ . وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ . أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بَمِثْلِهَا . وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ - إِلَىٰ قَوْلِهِ - أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝﴾ ^(٦) وقال تعالى : ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاءُوا : السَّوْءَىٰ ، أَنْ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ . وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ۝﴾ ^(٧) .

(١) الزخرف ٣٦ - ٣٩ (٢) الحج ١٧ . (٣) القصص ٨٤ (٤) الإسراء ٧

(٥) فصلت ٤٦ (٦) يونس ٢٦ ، ٢٧ (٧) الروم ١٠

فأما عدم الحسنات والسيئات ، فجزاؤه عدم الثواب والعقاب .

وإذا فرض رجل آمن بالرسول مجملًا ، وبقي مدة لا يفعل كثيراً من المحرمات . ولا سمع أنها محرمة ، فلم يعتقد تحريمها ، مثل من آمن ولم يعلم أن الله حرم الميتة والدم ولحم الخنزير ، ولا علم أنه حرم نكاح الأقارب سوى أربعة أصناف ، ولا حرم بالمصاهرة أربعة أصناف - حرم على كل من الزوجين أصول الآخر وفروعه - فإذا آمن ولم يفعل هذه المحرمات ، ولا اعتقد تحريمها لأنه لم يسمع ذلك ، فهو لا يثاب ولا يعاقب .

ولسكن إذا علم التحريم فاعتقده : أثيب على اعتقاده ، وإذا ترك ذلك - دعاء النفس إليه - أثيب ثواباً آخر كالذى تدعوه نفسه إلى الشهوات فينهاها ، كالصائم الذى تشتهى نفسه الأكل والجماع فينهاها ، والذى تشتهى نفسه شرب الخمر والفواحش فينهاها ، فهذا يثاب ثواباً آخر ، بحسب نهيه لنفسه ، وصبره على المحرمات ، واشتغاله بالطاعات التى ضدها . فإذا فعل تلك الطاعات كانت مانعة له عن المحرمات .

وإذا تبين هذا : فالحسنات التى يثاب عليها كلها وجودية ، نعمة من الله تعالى ، وما أحبته النفس من ذلك ، وكرهته من السيئات : فهو الذى حَبَّبَ الإيمان إلى المؤمنين وَزَيَّنَهُ فى قلوبهم وَكَرَّهَ إليهم الكفر والفسوق والعصيان .

فصل

[منشأ السيئات : الجهل]

٣٦ - وأما السيئات ، فنشؤها الجهل والظلم ، فإن أحداً لا يفعل سيئة قبيحة إلا لعدم علمه بكونها سيئة قبيحة ، أو لهواه وميل نفسه إليها . ولا يترك حسنة واجبة إلا لعدم علمه بوجوبها ، أو لبغض نفسه لها .

وفي الحقيقة ، فالسيئات كلها ترجع إلى الجهل ، وإلا فلو كان عالماً نافعاً بأن فعل هذا يضره ضرراً راجحاً ، لم يفعله ، فإن هذا خاصية العاقل ، ولهذا إذا كان من الحسنات ما يعلم أنه يضره ضرراً راجحاً ، كالسقوط من مكان عال ، أو في نهر يفرقه ، أو المرور بجانب حائط مائل ، أو دخول نار متأججة ، أو رمي ماله في البحر ونحو ذلك ، لم يفعله ، لعلمه بأن هذا ضرر لا منفعة فيه ، ومن لم يعلم أن هذا يضره ، كالصبي ، والمجنون ، والساهي ، والغافل - فقد يفعل ذلك .

ومن أقدم على ما يضره - مع علمه من الضرر عليه - فلفظه أن منفعته راجحة .

فأما أن يجزم بضرر مرجوح ، أو يظن أن الخير راجح فلا بد من رجحان الخير ، إما في الظن وإما في المظنون ، كالذي يركب البحر ويسافر الأسفار البعيدة للربح ، فإنه لو جزم بأنه يفرق أو يخسر لما سافر ، لكنه يترجح عنده السلامة والربح ، وإن كان مخطئاً في هذا الظن .

وكذلك الذنوب إذا جزم السارق بأنه يؤخذ ويقطع ، لم يسرق ، وكذلك الزاني : إذا جزم بأنه يرجم ، لم يزن ، والشارب يختلف حاله ، فقد يقدم على جلد أربعين وثمانين ، ويديم الشرب مع ذلك ، ولهذا كان الصحيح ، أن عقوبة الشارب غير محدودة ، بل يجوز أن تنتهي إلى القتل ، إذا لم ينته إلا بذلك ، كما جاءت بذلك الأحاديث ، كما هو مذکور في غير هذا الموضع

وكذلك العقوبات متى جزم طالب الذنب بأنه يحصل له به الضرر الراجح لم يفعله ، بل إما أن لا يكون جازماً بتحريمه ، أو يكون غير جازم بعقوبته ، بل يرجو العفو بحسنات ، أو توبة ، أو بعفو الله ، أو يففل عن هذا كله ، ولا يستحضر تحريمه ، ولا وعيداً ، فيبقى غافلاً ، غير مستحضر للتحريم : والفظة من أضداد العلم .

فصل

[أصل الشر ، الشهوة والغفلة]

٣٧ — فالغفلة والشهوة أصل الشر . قال تعالى : ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه . وكان أمره فوَطْأً ﴾ ^(١) والهوى وحده لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل ، وإلا فصاحب الهوى ، إذا علم قطعاً أن ذلك يضره ضرراً راجحاً : انصرفت نفسه عنه بالطبع ، فإن الله تعالى جعل في النفس حباً لما ينفعها ، وبغضاً لما يضرها ، فلا تفعل ما تجزم بأنه يضرها ضرراً راجحاً ، بل متى فعلته كان لضعف العقل .

ولهذا يوصف بأنه عاقل ، وذو نهي وذو حجة .

ولهذا كان البلاء العظيم من الشيطان ، لا من مجرد النفس ، فإن الشيطان يزين لها السيئات ، ويأمرها بها ، ويذكر لها ما فيها من المحاسن . التي هي منافع لا مضار . كما فعل إبليس بآدم وحواء . فقال : ﴿ يا آدم ، هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما ﴾ ^(٢) وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين ^(٣) .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ ومن يَعْش عن ذكر الرحمن تَقِصُّ له شيطاناً فهو له قرين . وإِنَّهُمْ لَيَصْدُونَهم عن السبيل ويَحْسِبُونَ أَنهم مهتدون ﴾ ^(٤) وقال تعالى ﴿ آمَن زَيْن له سوء عمله فَرَأَاهُ حسناً ﴾ ^(٥) ، وقال تعالى : ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ، فيسبوا الله عَدْوَاًً بغير علم . كذلك زيننا لكل أمة

(٢) طه ١٢٠ ، ١٢١ .

(٤) الزخرف ٣٦ .

(١) الكهف ٢٨ .

(٣) الأعراف ٢٠ .

(٥) فاطر ٨ .

علمهم . ثم إلى ربهم مرجعهم ، فينبئهم بما كانوا يعملون ﴿^(١)﴾ .

وقوله : ﴿ زينا لكل أمة علمهم ﴾ هو بتوسيط تزوين الملائكة والأنبياء ، والمؤمنين للخير ، وتزوين شياطين الجن والإنس للشر . قال تعالى : ﴿ وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم . وليلبسوا عليهم دينهم ﴾ ﴿^(٢)﴾ .

فأصل ما يوقع الفاس في السيئات : الجهل وعدم العلم بكونها تضرهم ضرراً واجباً ، أو ظن أنها تنفعهم نفعاً راجحاً . ولهذا قال الصحابة رضى الله عنهم : « كل من عصى الله فهو جاهل » وفسروا بذلك قوله تعالى : ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ﴾ . ثم يتوبون من قريب ﴿^(٣)﴾ كقوله : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا قتل : سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم ﴾ ﴿^(٤)﴾ . ولهذا يسمى حال فعل السيئات : الجاهلية فإنه يصاحبها حال من حال جاهلية .

قال أبو العالية : سألت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ؟ ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ﴾ فقالوا : كل من عصى الله فهو جاهل . ومن تاب قبيل الموت : فقد تاب من قريب . وعن قتادة قال : « أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على : أن كل من عصى ربه في جهالة عمداً كان أو لم يكن ، وكل من عصى الله فهو جاهل » وكذلك قال التابعون ومن بعدهم .

قال مجاهد : من عمل ذنباً - من شيخ ، أو شاب - فهو بجهالة ، وقال : من عصى ربه فهو جاهل . حتى ينزع عن معصيته . وقال أيضاً : هو إعطاء الجهل العمد .

وقال مجاهد أيضاً : من عمل سوءاً خطأ ، أو إثمًا عمداً : فهو جاهل ، حتى ينزع منه . وراهن ابن أبي حاتم . ثم قال : روى عن قتادة ، وعمرو بن مرة ، والثوري ، ونحو ذلك خطأ ، أو عمداً .

وروى عن مجاهد والضحاك قالا : ليس من جهالة أن لا يعلم حلالاً ولا حراماً ، ولكن جهالة : حين دخل فيه .

وقال عكرمة : الدنيا كلها جهالة .

وعن الحسن البصري : أنه سئل عنها ؟ فقال : هم قوم لم يعلموا ما لهم مما عليهم . قيل له : أرايت لو كانوا قد علموا ؟ قال : فليخرجوا منها . فإنها جهالة .

[العلم - خشية الله]

٣٨ - قلت : وما يبين ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ^(١) وكل من خشيه ، وأطاعه ، وترك معصيته : فهو عالم . كما قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آثَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا ؟ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ ، وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ . قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ؟ ﴾ ^(٢) .

وقوله تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » يقتضى أن كل من خشى الله فهو عالم . فإنه لا يخشاه إلا عالم .

ويقتضى أيضاً : أن العالم من يخشى الله . كما قال السلف .

قال ابن مسعود : « كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار جهلاً » .

ومثل هذا الحصر يكون من الطرفين ، حصر الأول في الثاني . وهو مطرد .
وحصر الثاني في الأول نحو قوله : ﴿ إنما تنذر من اتبع الذکر وخشى الرحمن بالغيب ﴾ ^(١) ، وقوله : ﴿ إنما أنت منذر من يحشاها ﴾ ^(٢) ، وقوله : ﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بهَا خروا سجداً وسبحوا بحمدهم وهم لا يستكبرون .
تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ ^(٣) .

ومن ذلك : أنه أثبت الخشية للعلماء ، ونفاها عن غيرهم وهذا كالاستثناء .
فإنه من النفي : إثبات عند جمهور العلماء . كقولنا « لا إله إلا الله » ، وقوله تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ ^(٤) ، وقوله : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ وقوله : ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾
وقد ذهب طائفة إلى أن المستثنى مسكوت عنه ، لم يثبت له ماذكر ، ولم ينف عنه .

وهؤلاء يقولون ذلك في صيغة الحصر بطريق الأولى ، فيقولون : نفي الخشية عن غير العلماء ، ولم يثبتها لهم .

والصواب : قول الجمهور : أن هذا كقوله : ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ﴾ ^(٥) ، فإنه ينفي التحريم عن غير هذه الأصناف ويثبتها لها . لكن أثبتنا للجنس . أو لكل واحد ؟ كما يقال ؛ إنما يحج المسلمون . ولا يحج إلا مسلم . وذلك أن المستثنى هل هو مقتض أو شرط ؟

ففي هذه الآية وأمثالها : هو مقتض ، فهو عام ، فإن العلم بما أنذرت به

(١) يس ١١ . (٢) النازعات ٤٥ . (٣) السجدة ١٥ ، ١٦ .

(٤) الأنبياء ٢٨ . (٥) الأعراف ٣٣ .

الرسول يوجب الخوف ، فإذا كان العلم يوجب الخشية الحاملة على فعل الحسنات ، وترك السيئات . وكل عاصٍ فهو جاهل ليس بتام العلم . يبين ماذا كونا من أن أصل السيئات الجهل ، وعدم العلم . وإذا كان كذلك . فعدم العلم ليس شيئاً . وجوداً . بل هو مثل عدم القدرة ، وعدم السمع والبصر ، وسائر الأعدام .



والعدم : لا فاعل له . وليس هو شيئاً . وإنما الشيء الموجود والله تعالى خالق كل شيء . فلا يجوز أن يضاف عدم المحض إلى الله . لكن قد يقترن به ما هو موجود .

فإذا لم يكن عالماً بالله ، لا يدعوهُ إلى الحسنات ، وترك السيئات . والنفس بطبعها متحولة . فإنها حية . والإرادة والحركة الإرادية من لوازم الحياة . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « أصدق الأسماء حارث وهام » فكل آدمي حارث وهام . أى عامل كاسب ، وهو هام . أى يهم ويريد . فهو متحرك بالإرادة .

وقد جاء في الحديث : « مثل القلب : مثل ريشة . لمقاة بأرض فلاة ، والقلب أشد تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياناً » .

فلما كانت الإرادة والعمل من لوازم ذاتها : فإذا هداها الله : علمها ما ينفعها وما يضرها فأرادت ما ينفعها ، وتركت ما يضرها .

فصل

والله سبحانه وتعالى قد تفضل على بنى آدم بأمرين : هما أصل السعادة .

[الفطرة]

٣٩ - أحدهما : أن كل مولود يولد على الفطرة ، كما فى الصحيحين عن

النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه » كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء . هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم : ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ قال تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً : فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ (١) .

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تعالى : خلقت عبادة حنفاء ، فاجتأهم الشيطان . وحرمت عليهم ما أحللت لهم . وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً » .

فالنفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالإلهية ، محبة ، تعبده لا تشرك به شيئاً . ولكن يفسدها ما يزين لها شياطين الإنس والجن بما يوحى بعضهم إلى بعض من الباطل . قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم . وأشهدهم على أنفسهم : ألسن بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا . أن تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟ ﴾ (٢) .

وتفسير هذه الآية بمسوط في غير هذا الموضع .

[هداية الله]

ع — الثاني : أن الله تعالى قد هدى للناس هداية عامة بما جعل فيهم بالفطرة من المعرفة وأسباب العلم ، وبما أنزل إليهم من الكتب ، وأرسل إليهم من الرسل . قال تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ (٣) . وقال تعالى

(٢) الأعراف ١٧٢ ، ١٧٣ .

(١) الروم ٣٠ .

(٣) الطلق ١ - ٥ .

﴿الرحمن علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان﴾^(١) وقال تعالى : ﴿سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوَّى والذي قدر فهدى﴾^(٢) . وقال تعالى : ﴿وهديناه النجدين﴾^(٣) .

ففي كل أحد ما يقتضى معرفته بالحق ومحبة له . وقد هداه ربه إلى أنواع من العلم ، ويمكنه أن يتوصل بها إلى سعادة الأولى والآخرة ، وجعل في فطرته محبة لذلك . لكن قد يعرض الإنسان بجاهليته وغفلته - عن طلب علم ما ينفعه . وكونه لا يطلب ذلك ، ولا يريد : أمر عديم ، ولا يضاف إلى الله تعالى . فلا يضاف إلى الله : لا عدم علمه بالحق ، ولا عدم إرادته للخير .

[طبيعة النفس]

٤١- لكن النفس - كما تقدم - الإرادة والحركة من لوازمها . فإنها حية حياة طبيعية لكن سعادتها ونجاتها إنما تتحقق بأن تحيا الحياة النافعة الكاملة . وكان ما لها من الحياة الطبيعية موجبا لعذابها . فلا هي حية متنعة بالحياة . ولا هي ميتة مستريحة من العذاب ، قال تعالى : ﴿فذكرٌ إن نفعت الذكوى . سيدٌ كر من يخشى . ويتجنبها الأشقى . الذي يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى﴾^(٤) فالجزاء من جنس العمل . لما كان في الدنيا : ليس يحى الحياة النافعة التي خلق لأجلها . بل كانت حياته من جنس حياة البهائم . ولم يكن ميتا عديم الإحساس : كان في الآخرة كذلك . فإن مقصود الحياة : هو حصول ما ينفع به الحى ويستلذ به ، والحى لا بد له من لذة أو ألم ، فإذا لم تحصل له اللذة ، لم يحصل له مقصود الحياة ، فإن الألم ليس مقصودا .

كمن هو حى في الدنيا ، وبه أمراض عظيمة لاتدعه يتنعم بشيء مما يتنعم به الأحياء ، فهذا يبقى طول حياته يختار الموت ، ولا يحصل له .

(٢) الأعلى ١ - ٣ .

(١) الرحمن ١ - ٣ .

(٤) الأعلى ٩ - ١٣ .

(٣) البلد ١٠ .

فلما كان من طبع النفس الملازم لها : وجود الإرادة والعمل ، إذ هو حارث هام ، فإن عرفت الحق وأرادته وأحبطته وعبدته ، فذلك من تمام إنعام الله عليها ، وإلا فهي بطبعها لا بد لها من مراد معبود غير الله ، ومرادات صيئة تضرها ، فهذا الشر قد تركب من كونها لم تعرف الله ولم تعبد ، وهذا عدم لا يضاف إلى فاعل ، ومن كونها بطبعها لا بد لها من مراد معبود ، فعبدت غيره ، وهذا هو الشر الذى تعذب عليه ، وهو من مقتضى طبعها مع عدم هداها .

* * *

[غلط التقديرية في « إرادة » الإنسان]

٤٢ — والتقديرية يعترفون بهذا جميعه ، وبأن الله خلق الإنسان مريداً ، لكن يعملون الخلق كونه مريداً بالقوة والقبول ، أى قابلاً لأن يرد هذا وهذا . أما كونه مريداً لهذا المعين ، وهذا المعين : فهذا عندهم ليس مخلوقاً لله - وغلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً ، فإن الله خالق هذا كله .

وإرادة النفس لما يريد من الذنوب وفعلها : هو من جملة مخلوقات الله تعالى ، فإن الله خالق كل شيء ، وهو الذى ألهم النفس - التى سواها - فجورها وتقواها .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه : « اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها ، أنت خير من زكها ، أنت وليها ومولاها » .

وهو سبحانه : جعل إبراهيم وآله أئمة يهدون بأمره ، وجعل فرعون وآله أئمة يدعون إلى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون .

لكن هذا لا يضاف مفرداً إلى الله تعالى ، لوجهين : من جهة علته الغائبة ، ومن جهة سببه وعلته الفاعلة .

أما الغائبة : فإن الله إنما خلقه لحكمة هي باعتبارها خيراً ، لا شراً ، وإن كان

شراً إضافياً . فإذا أضيف مفرداً : توهم المتوهم مذهب جهنم : أن الله يخلق الشر المحض الذى لا خير فيه لأحد ؛ لا لحكمة ولا رحمة ، والأخبار والسنة والاعتبار تبطل هذا المذهب .

كما أنه إذا قيل : محمد وأمته يسفكون الدماء ، ويفسدون فى الأرض : كان هذا ذمّاً لهم ، وكان باطلاً . وإذا قيل : يجاهدون فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا ، ويكون الدين كله لله ، يقتلون من منعهم من ذلك : كان هذا مدحاً لهم ، وكان حقاً .

فإذا قيل : إن الرب تبارك وتعالى حكيم رحيم ، أحسن كل شئ خلقه ، وأتقن ما صنع ، هو أرحم الراحمين ؛ أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، والخير كله بيديه ، والشر ليس إليه ، بل لا يفعل إلا خيراً ، وما خلقه من ألم لبعض الحيوانات أو من أعمالهم المذمومة : فله فيها حكمة عظيمة ، ونعمة جسيمة - كان هذا حقاً ، وهو مدح للرب وثناء عليه .

وأما إذا قيل : إنه يخلق الشر الذى لا خير فيه ولا منفعة لأحد ، ولا له فيها حكمة ولا رحمة . ويعذب الناس بلا ذنب : لم يكن هذا مدحاً للرب ، ولا ثناء عليه ؛ بل كان بالعكس .

ومن هؤلاء من يقول : إن الله تعالى أضر على خلقه من إبليس .

وبسط القول فى بيان فساد قول هؤلاء له موضع آخر .

وقد بينّا بعض ما فى خلق جهنم وإبليس من السيئات : من الحكمة والرحمة . وما لم نعلم أعظم مما علمناه .

فتبارك الله أحسن الخالقين ، وأرحم الراحمين ، وخير الغافرين ، ومالك يوم الدين . الأحد الصمد . الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، الذى لا يحصى العباد ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، الذى له الحمد فى الأولى

والآخرة ، وله الحكم وإليه يرجعون . الذى يستحق الحمد والحب والرضا لذاته . وإحسانه إلى عباده ، سبحانه وتعالى ، يستحق أن يحمد لئلا له فى نفسه من المحامد والإحسان إلى عباده ، هذا حمد شكر ، وذاك حمد مطلقاً .

* * *

[كل ما خلقه الله فهو نعمة للمؤمنين]

٤٣ — وقد ذكرنا — فى غير هذا الموضع — ما قيل : من أن كل ما خلقه الله فهو نعمة على عباده المؤمنين . يستحق أن يحمده ويشكروه عليه ، وهو من الآية . ولهذا قال فى آخر سورة النجم ﴿ فبأى آلاء ربك تتماهى؟ ﴾^(١) وفى سورة الرحمن يذكر : ﴿ كل من عليها فان ﴾^(٢) ونحو ذلك . ثم يقول عقب ذلك ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ .

وقال آخرون : منهم الزجاج ، وأبو الفرج ابن الجوزى : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ أى من هذه الأشياء المذكورة ، لأنها كلها ينعم بها عليكم فى دلائلها إياكم على وحدانيته . وفى رزقه إياكم ما به قوامكم . وهذا قالوه فى سورة الرحمن .

وقالوا فى قوله : ﴿ فبأى آلاء ربك تتماهى ؟ ﴾ فبأى نعم ربك التى تدل على وحدانيته وتشكك ؟ وقيل : تشك وتجادل ؟ قال ابن عباس : تكذب ؟ . قلت : قد ضمن « تتماهى » معنى تكذب . ولهذا عداه بالتاء . فإن التماهى تفاعل من المراء . يقال : تماهينا فى الهلال ، والمراء فى القرآن كفر . وهو يكون تكذيب وتشكيك .

وقد يقال : لما كان الخطاب لهم . قال « تتماهى » أى يتماهرون ، ولم يقل : تميرك . فإن التفاعل يكون بين اثنين تماهيا . قالوا : والخطاب للإنسان ، قيل :

للوليد بن المغيرة . فإنه قال : ﴿ أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى : أن لا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ ^(١) ثم التفت إليه فقال « فبأى آلاء ربك تتماهى ؟ » تكذبان . كما قال ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار . وخلق الجان من مارج من نار ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ ^(٢) .

ففى كل ما خلقه الله إحسان إلى عباده ، يحمد عليه حمد شكر . وله فيه حكمة تعود إليه ، يستحق لأجلها أن يحمد عليه حمداً يستحقه لذاته .

جميع المخلوقات : فيها إنعام على العباد ؟ كالثقلين المخاطبين بقوله « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » ومن جهة أنها آيات للرب ، يحصل بها هدايتهم وإيمانهم الذى يسعدون به فى الدنيا والآخرة . فيدلم عليه وعلى وحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته .

والآيات التى بعث بها الأنبياء وأيدهم بها ونصرهم . وإهلاك عدوم - كما ذكره فى سورة النجم ﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى ، وثمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل ، إنهم كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤتفكة أهوى . ففشاها ما غشى ﴾ ^(٣) . يدلهم على صدق الأنبياء فيما أخبروا به من الأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، ما بشروا به وأنذروا به .

ولهذا قال عقيب ذلك : ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ قيل : هو محمد . وقيل : هو القرآن . فإن الله سى كلا منهما بشيراً ونذيراً . فقال فى رسول الله : ﴿ إن أفا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾ ^(٤) وقال تعالى : ﴿ إنا أرسلناك شاهداً وبشيراً ونذيراً ﴾ ^(٥) وقال تعالى فى القرآن ﴿ كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً ﴾ ^(٦) وهما متلازمان .

(٢) الرحمن ١٤ - ١٦ .

(٤) الأعراف ١٨٨ .

(٦) فصلت ٢ .

(١) النجم ٣٦ - ٣٨ .

(٣) النجم ٥٠ - ٥٤ .

(٥) الفتح ٨ .

وكل من هذين المعنيين : مراد . يقال : هذا نذير أنذر بما أنذرت به
الرسل والكتب الأولى .

وقوله « من النذر » أى من جنسها . أى رسول من الرسل المرسلين .
ففى المخلوقات : نعم من جهة حصول الهدى والإيمان ، والاعتبار
والموعظة بها .
وهذه أفضل النعم .

[نعمة الإيمان : أفضل النعم]

٤٤ — فأفضل النعم : نعمة الإيمان . وكل مخلوق من المخلوقات : فهو
الآيات التى يحصل بها ما يحصل من هذه النعمة . قال تعالى : ﴿ لقد كان فى
قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿ تبصرة وذكرى لكل
عبد منيب ﴾ ^(٢) .

وما يصيب الإنسان ، إن كان سره : فهو نعمة بينة . وإن كان يسوءه :
فهو نعمة من جهة أنه يكفر خطاياه . ويثاب بالصبر عليه ، ومن جهة أن فيه
حكمة ورحمة لا يعلمها ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . وعسى أن
تحبوا شيئاً وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ ^(٣) .

وقد قال فى الحديث : « والله لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له .
إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له . وإن أصابته ضراء صبر ، فكان
خيراً له » . وإذا كان هذا وهذا : فكلاهما من نعم الله عليه .

[الصبر على السراء والضراء والشكر عليهما]

٤٥ — وكلتا النعمتين تحتاج مع الشكر إلى الصبر .
أما نعمة الضراء : فاحتياجها إلى الصبر ظاهر . وأما نعمة السراء : فتححتاج

إلى الصبر على الطاعة فيها ، فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء . كما قال بعض السلف : ابتلينا بالضراء فصبرنا . وابتلينا بالسراء فلم نصبر .

وفى الحديث : « أعوذ بك من فتنة الفقراء . وشر فتنة الغنى » .

والفقر يصلح عليه خلق كثير . والغنى : لا يصلح عليه إلا أقل منهم .

ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين ، لأن فتنة الفقر أهون . وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر ؛ لكن لما كان في السراء : اللذة . وفي الضراء : الألم . اشتهر ذلك الشكر في السراء ، والصبر في الضراء . قال تعالى ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمةً ثم نزعناها منه ، إنه ليؤوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولنَّ : ذهب السيئات عني ، إنه لفحور نفور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ ^(١) ولأن صاحب السراء : أحوج إلى الشكر ، وصاحب الضراء : أحوج إلى الصبر فإن صبر هذا وشكر هذا : واجب . إذا تركه استحق العقاب .

وأما صبر صاحب السراء : فقد يكون مستحباً ، إذا كان عن فضول الشهوات ، وقد يكون واجباً ، ولكن لإتيانه بالشكر - الذي هو حسنات - يغفر له ما يغفر من سيئاته .

وكذلك صاحب الضراء : لا يكون الشكر في حقه مستحباً إذا كان شكراً يصير به من السابقين المقربين . وقد يكون تقصيره في الشكر : مما يغفر له ، لما يأتي به من الصبر ؛ فإن اجتماع الشكر والصبر جميعاً : يكون مع تألم النفس وتلذذها ، يصبر على الألم ، ويشكر على النعم . وهذا حال يعسر على كثير من الناس . وبسط هذا له موضع آخر .

* * *

والمقصود هنا : أن الله تعالى منهم بهذا كله ، وإن كان لا يظهر الإنعام به في الابتداء لأكثر الناس . فإن الله يعلم وأتم لا تعلمون . فكل ما يفعله الله فهو نعمة منه .

[ذنوب الإنسان]

٤٦ — وأما ذنوب الإنسان : فهي من نفسه . ومع هذا فهي - مع حسن العاقبة - نعمة وهي نعمة على غيره بما يحصل له بها من الاعتبار والهدى والإيمان . ولهذا كان من أحسن الدعاء قوله : « اللهم لا تجعلني عبرة لغيري ، ولا تجعل أحداً أسعد بما علمتني مني » .

وفي دعاء القرآن : ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ ^(١) ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾ ^(٢) كما فيه ﴿ واجعلنا للمتقين إماما ﴾ ^(٣) أى فاجعلنا أئمة لمن يقتدى بنا ويأتم . ولا تجعلنا فتنة لمن يضل بنا ويشقى .

و « الآلاء » في اللغة : هي النعم ، وهي تتضمن القدرة . قال ابن قتيبة : لما عُدَّ الله في هذه السورة - سورة الرحمن - نعماءه ، وذكر عباده آلاءه ونبهم على قدرته . وجعل كل كلمة من ذلك فاصلة بين نعمتين ، ليفهم النعم ويقرهم بها .

وقد روى الحاكم في صحيحه والترمذى عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحمن حتى ختمها . ثم قال : مالي أراكم سكوتاً ؟ الجن كان أحسن منكم ودأ . ما قوأت عليهم هذه الآية من مرة - فبأى آلاء ربكم تكذبون - إلا قالوا : ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد » .

[القرآن كله تذكير بآلاء الله]

٤٧ — والله تعالى يذكر في القرآن بآياته الدالة على قدرته وربوبيته ،

ويذكر بآياته التي فيها نعمة وإحسانه إلى عباده ، ويذكر بآياته المينة لحكته تعالى ، وهي كلها متلازمة .

فكل ما خلق : فهو نعمة ، ودليل على قدرته وعلى حكته .
 لكن نعمة الرزق ، والانتفاع بالمال ككل وللشارب والمساكن والملابس :
 ظاهرة لكل أحد ، فهذا يستدل بها ، كما في سورة النحل : وتسمى سورة
 النعم . كما قاله قتادة وغيره .

[الفرق بين الحمد والشكر]

٤٨ — وعلى هذا : فكثير من الناس يقول :
 الحمد أعم من الشكر من جهة أسبابه ، فإنه يكون على نعمة وعلى غير نعمة .
 والشكر أعم من جهة أنواعها . فإنه يكون بالقلب واللسان واليد .
 فإذا كان كل مخلوق فيه نعمة : لم يكن الحمد إلا نعمة ، والحمد لله
 على كل حال ، لأنه ما من حال يتضيها إلا وهي نعمة على عباده .
 لكن هذا فهم من عرف مافي المخلوقات من النعم . والجهمية والجبرية :
 بمعزل عن هذا .

وكذلك كل ما يخلقه : ففيه له حكمة . فهو محمود عليه باعتبار تلك
 الحكمة . والجهمية أيضاً بمعزل عن هذا .

وكذلك القدرية الذين يقولون : لا تعود الحكمة إليه . بل ما تم إلا
 نفع الخلق ، فما عندهم إلا شكر ، كما ليس عند الجهمية إلا قدرة .

والقدرة المجردة عن نعمة وحكمة : لا يظهر فيها وصف حمد ، كالتقادر
 الذي يفعل ما لا ينتفع به ولا ينفع به أحداً ، فهذا لا يحمد .

فحقيقة قول الجهمية أتباع جهم : أنه لا يستحق الحمد . فله عندهم ملك
 بلا حمد ، مع تقصيرهم في معرفة ملكه .

كما أن المعتزلة له عندهم نوع من الحمد بلا ملك تام ، إذ كان عندهم
 يشاء مالا يكون ، ويكون مالا يشاء ، وتحدث حوادث بلا قدرته .
 وعلى مذهب السلف : له الملك وله الحمد تامين ، وهو محمود على حكمته ،
 كما هو محمود على قدرته ورحمته .

وقد قال : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً
 بالقسط : لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ ^(١) فله الوجدانية في إلهيته ، وله
 العدل ، وله العزة والحكمة .

وهذه الأربعة إنما يثبتها السلف وأنبايعهم . قن قصر عن معرفة السنة ،
 فقد نقص الرب بعض حقه .

والجهى الجبرى لا يثبت عدلاً ولا حكمة ، ولا توحيد إلهية . بل توحيد
 ربوبيته . والمعتزلى أيضاً لا يثبت في الحقيقة توحيد إلهية ولا عدلاً في الحسنات
 والسيئات ، ولا عزة ولا حكمة في الحقيقة ، وإن قال : إنه يثبت الحكمة
 بما معناها يعود إلى غيره . وتلك لا يصلح أن تكون حكمة من فعل لا لأمر
 يرجع إليه ، بل لغيره هو عند العقلاء قاطبة بها : ليس بحكيم ، بل صفيه .
 وإذا كان الحمد لا يقع إلا على نعمة ، فقد ثبت : أنه رأس الشكر فهو
 أول الشكر .

والحمد - وإن كان على نعمته وعلى حكمته - فالشكر بالأعمال : هو
 على نعمته وهو على عبادة له لإلهيته التى تتضمن حكمته . فقد صار مجموع الأمور
 داخلاً في الشكر .

ولهذا عظم القرآن أمر الشكر . ولم يعظم أمر الحمد مجرداً ، إذا كان
 نوعاً من الشكر .

وشرع الحمد - الذى هو الشكر المقول - أمام كل خطاب مع التوحيد .
 ففي الفاتحة : الشكر والتوحيد ، والخطب الشرعية لابد فيها من الشكر
 والتوحيد ، والباقيات الصالحات نوعان . فسبحان الله وبحمده : فيها الشكر
 والتزويه والتعظيم . ولا إله إلا الله والله أكبر : فيها التوحيد والتكبير .
 وقد قال تعالى : ﴿ فادعوه مخلصين له الدين . الحمد لله رب العالمين ﴾ (١) .



[قضاء السيئات]

٤٩ - وهل الحمد على كل ما يحمد به المدوح . وإن لم يكن باختياره ،
 أو لا يكون الحمد على الأمور الاختيارية . كما قيل فى الذم ؟ فيه نظر ليس
 هذا موضعه .

وفى الصحيح : « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من
 الركوع يقول : ربنا ولك الحمد . ملء السماء ، وملء الأرض ، وملء ما شئت
 من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد . أحق ما قال العبد - وكلنا لك عبد - لا مانع
 لما أعطيت . ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجدم منك الجدم » - هذا لفظ
 الحديث « أحق » أفعل التفضيل .

وقد غلط فيه طائفة من المصنفين فقالوا : « حق ما قال العبد » .

وهذا ليس لفظ الرسول . وليس هو بقول شديد . فإن العبد يقول الحق
 والباطل . بل الحق ما يقوله الرب . كما قال تعالى : ﴿ فالحق والحق أقول ﴾ (٢) .
 ولكن لفظة « أحق ما قال العبد » خبر مبتدأ محذوف . أى الحمد أحق
 ما قال العبد . أو هذا - وهو الحمد - أحق ما قال العبد .

ففيه بيان : أن الحمد لله أحق ما قاله العباد . ولهذا أوجب قوله في كل صلاة ، وأن تفتح به الفاتحة ، وأوجب قوله في كل خطبة ، وفي كل أمر ذي بال .

والحمد ضد الذم . والحمد يكون على محاسن المحمود ، مع المحبة له ، كما أن الذم يكون على مساويه ، مع البغض له .

فإذا قيل : إنه سبحانه يفعل الخير والحسنات ، وهو حكيم رحيم بعباده ، أرحم بعباده من الوالدة بولدها : أوجب ذلك أن يحبه عباده ويحمدوه .

وأما إذا قيل : بل يخلق ما هو شر محض ، ولا نفع فيه ولا رحمة ، ولا حكمة لأحد . وإنما يتصرف بإرادة ترجح مثلاً على مثل . لافرق عنده بين أن يرحم أو يعذب . وليست نفسه ولا إرادته مرجحة للإحسان إلى الخلق ، بل تعذيبهم وتنعيمهم سواء عنده : وهو - مع هذا - يخلق ما يخلق للمجرد العذاب والشر ، ويفعل ما يفعل لا لحكمة - ونحو ذلك ، مما يقوله الجهمية - لم يكن هذا موجهاً لأن يحبه العباد ويحمدوه . بل هو موجب للعكس .

ولهذا فإن كثيراً من هؤلاء ينطقون بالذم والشتم والظن ، ويدكزون ذلك نظاماً ونثراً .

وكثيراً من شيوخ هؤلاء وعلمائهم من يذكرون في كلامه ما يقتضي هذا . ومن لم يقله لسانه فقلبه ممتلئ به ، لكن يرى أن ليس في ذكره منفعة ، أو يخاف من عموم المسلمين .

وفي شعر طائفة من الشيوخ ذكر نحو هذا .

وهؤلاء يقيمون حجج إبليس وأتباعه على الله . ويجعلون الرب ظالماً لهم .

وهو خلاف ما وصف الله به نفسه ، في قوله تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ولكن ﴾

كانوا هم الظالمين ﴿١﴾ وقوله : ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ ﴿٢﴾ .
وقوله : ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ ﴿٣﴾ .

كيف يكون ظالماً ؟ وهم فيما بينهم لو أساء بعضهم إلى بعض ، أو قصر في حقه
لكان يؤاخذه ، ويعاقبه وينتقم منه . ويكون ذلك عدلاً إذا لم يعتد عليه .
ولو قال : إن الذي فعلته قدر عليّ فلا ذنب لي فيه : لم يكن هذا عذراً له
عندهم باتفاق العقلاء .

فإذا كان العقلاء متفقين على أن حق المخلوق لا يجوز إسقاطه احتجاجاً
بالتدرة ، فكيف يجوز إسقاط حق الخالق احتجاجاً بالتدرة ؟

وهو سبحانه الحكيم العدل ، الذي لا يظلم مثقال ذرة : وإن تك حسنة
يضاعفها . ويؤت من لدنه أجراً عظيماً . وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .
فقوله : « أحق ما قال العبد » يقتضى : أن حمد الله أحق ما قاله العبد ،
فله الحمد على كل حال . لأنه لا يفعل إلا الخير والإحسان ، الذي يستحق الحمد
عليه ، سبحانه وتعالى وإن كان العباد لا يعلمون .

* * *

[حكمة خلق الإنسان]

٥٠ — وهو سبحانه خلق الإنسان ، وخلق نفسه متحركة بالطبع حركة
لا بد فيها من الشر لحكمة بالغة ، ورحمة سابعة .

فإذا قيل : فلم يخلقها على غير هذا الوجه ؟

قيل : كان يقول ذلك خلقاً غير الإنسان وكانت الحكمة التي خلقها بخلق

الإنسان لا تحصل . وهذا سؤال الملائكة حيث قالوا : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ ﴾ ^(١) ما لم تعلمه الملائكة ، فكيف يعلمه آحاد الناس .
وفي نفس الإنسان خلقت كما قال الله تعالى : ﴿ إن الإنسان خلق هلوياً . إذا مسه الشر جزوعاً . وإذا مسه الخير منوعاً ﴾ ^(٢) ، وقال تعالى ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ ^(٣) .

فقد خلقت خلقة تستلزم وجود ما وجد منها لحكمة عظيمة ، ورحمة عيمة . فكان ذلك خيراً ورحمة ، وإن كان فيه شر إضافي ، كما تقدم . فهذا من جهة الغاية مع أنه لا يضاف الشر إلى الله .

وأما الوجه الثاني من جهة السبب : فإن هذا الشر إنما وجد لعدم العلم والإرادة التي تصلح النفس ، فإنها خلقت بفطرتها تقتضي معرفة الله ومحبه ، وقد هديت إلى علوم وأعمال تعينها على ذلك . وهذا كله من فضل الله وإحسانه لكن النفس المذنبه لما لم يحصل لها من يكملها ، بل حصل لها من زين لها السيئات - من شياطين الإنس والجن - مالت إلى ذلك ، وفعلت السيئات . فكان فعلها للسيئات . مركباً من عدم ما ينفع وهو الأفضل . ووجود هؤلاء الذين خيروها ، والعدم لا يضاف إلى الله .

وهؤلاء : القول فيهم كالقول فيها : خلقهم لحكمة .

فلما كان عدم ما تعمل به وتصلح : هو أحد السببين . وكان الشر المحض الذي لا خير فيه : هو عدم المحض ، والعدم لا يضاف إلى الله . فإنه ليس شيئاً : والله خالق كل شيء . كانت السيئات منها باعتبار ذاتها في نفسها مستلزمة للحركة الإرادية التي تحصل منها عدم مع ما يصلحها تلك السيئات .

والعبد إذا اعترف وأقر بأن الله خالق أفعاله كلها فهو على وجهين :

إن اعترف به إقراراً بخلق الله كل شيء ، بقدرته ونفوذ مشيئته ، وإقراراً بكلماته التامات التي لا يجاوزهن برئ ولا فاجر ، واعتراكاً بفقره وحاجته إلى الله وأنه لم يهبه فهو ضال ، وإن لم يتب عليه فهو مُصرٌّ ، وإن لم يغفر له فهو هالك : خضع لعزته وحكمته . فهذا حال المؤمنين الذين يرحمهم الله ويهديهم ويوفقهم لطاعته .

وإن قال ذلك احتجاجاً على الرب ، ودفعاً للأمر والنهي عنه ، وإقامة لعذر نفسه ، فهذا ذنب أعظم من الأول ، وهذا من أتباع الشيطان . ولا يزيده ذلك إلا شراً . وقد ذكرنا أن الرب — سبحانه — محمود لنفسه وإحسانه إلى خلقه ؛ ولذلك هو يستحق الحجة لنفسه وإحسانه إلى عباده . ويستحق أن يرضى العبد بقضائه ؛ لأنه حكمه عدل ؛ لا يفعل إلا خيراً وعدلاً . ولأنه لا يقضى للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له : « إن أصابته سراء شكر ؛ فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له » .

فالمؤمن يرضى بقضائه لما يستحقه الرب لنفسه — من الحمد والثناء — ولأنه محسن إلى المؤمن .

[قضاء السيئات]

٥١ — وما تسأله طائفة من الناس ، وهو أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له » وقد قضى عليه بالسيئات الموجبة للعقاب ، فكيف يكون ذلك خيراً ؟ .

وعنه جوابان :

أحدهما : أن أعمال العباد لم تدخل في الحديث ؛ إنما دخل فيه ما يصيب

الإنسان من النعم والمصائب ، كما في قوله : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ ^(١) . ولهذا قال : « إن أصابته مرء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ؛ فكان خيراً له » فجعل القضاء : ما يصيبه من مرء وضراء . هذا ظاهر لفظ الحديث ، فلا إشكال عليه .

الوجه الثاني : أنه إذا قدر أن الأعمال دخلت في هذا ، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من سرته حسنة ، وساءته سيئة فهو مؤمن » . فإذا قضى له بأن يحسن ، فهذا مما يسره ، فيشكر الله عليه .

وإذا قضى عليه بسيئة : فهي إنما تكون سيئة يستحق العقوبة عليها ، إذا لم يتب منها ، فإن تاب أبدلت بحسنة ، فيشكر الله عليها ، وإن لم يتب ابتلى بمصائب تكفرها ، فصبر عليها ، فيكون ذلك خيراً له : والرسول صلى الله عليه وسلم قال : « لا يقضى الله للمؤمن » والمؤمن هو الذي لا يصبر على ذنب . بل يتوب منه ؛ فيكون حسنة كما قد جاء في عدة آيات : إن العبد يعمل الذنب فيدخل به الجنة بعمله . ولا يزال يتوب منه حتى يدخل بتوبته منه الجنة .

والذنب يوجب ذل العبد وخضوعه ، ودعاء الله واستغفاره إياه ، وشهوده بقره وحاجته إليه ، وأنه لا يفقر الذنوب إلا هو .

فيمحصل للمؤمن — بسبب الذنب — من الحسنات ما لم يكن يحصل بدون ذلك ، فيكون هذا القضاء خيراً له .

فهو في ذنوبه بين أمرين : إما أن يتوب ، فيتوب الله عليه ، فيكون من التوابين الذين يحبهم الله .

وإما أن يكفر عنه بمصائب ، تصيبه ضراء فيصبر عليها . فيكفر عنه
السيئات بتلك المصائب ، وبالصبر عليها ترتفع درجاته .
وقد جاء في بعض الأحاديث يقول الله تعالى : « أهل ذكرى أهل مجالستي ،
وأهل شكوى أهل زيارتي ، وأهل طاعتي أهل كرامتي ، وأهل معصيتي
لا أؤيسهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم » أى : محبهم ، فإن الله يحب
التوابين ويحب المتطهرين » وإن لم يتوبوا فأنا طيبهم ، أبتليهم بالمصائب
لأكفر عنهم المعائب » .

[مافى قوله تعالى « من نفسك » من الفوائد]

٥٢ - وفى قوله تعالى « من نفسك » من الفوائد : أن العبد لا يركن
إلى نفسه ، ولا يسكن إليها ، فإن الشر لا يجيء إلا منها ، ولا يشتغل بعلام
الناس ولا ذمهم إذا أساءوا إليه ؛ فإن ذلك من السيئات التى أصابته ، وهى
إنما أصابته بذنوبه ؛ فيرجع إلى الذنوب فيستغفر منها ، ويستعيز بالله من شر
نفسه وسيئات عمله ، ويسأل الله أن يعينه على طاعته ، فبذلك يحصل له كل
خير ، ويندفع عنه كل شر .

ولهذا كان أنفع الدعاء ، وأعظمه وأحكمه : دعاء الفاتحة ﴿ اهدنا الصراط
المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ .
فإنه إذا هداه هذا الصراط : أعانه على طاعته وترك معصيته ، فلم يصبه شر ،
لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

لكن الذنوب هى من لوازم نفس الإنسان ، وهو محتاج إلى الهدى فى
كل لحظة : وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الأكل والشرب .

ليس كما يقوله طائفة من المفسرين : إنه قد هداه . فلماذا يسأل الهدى ؟
وأن المراد بسؤال المهدى : الثبات ، أو مزيد الهداية .

بل العبد محتاج إلى أن يعلمه ربه ما يفعله من تفاصيل أحواله ، وإلى ما يتولد من تفاصيل الأمور في كل يوم ، وإلى أن يلهم أن يعمل ذلك .

فإنه لا يكفي مجرد علمه ، إن لم يجعله الله مريدا للعمل بعلمه ، وإلا كان العلم حجة عليه ، ولم يكن مهتدياً ، والعبد محتاج إلى أن يجعله الله قادراً على العمل بتلك الإرادة الصالحة .

فإنه لا يكون مهتدياً إلى الصراط المستقيم — صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين — إلا بهذه العلوم والإرادات والقدرة على ذلك .

ويدخل في ذلك من أنواع الحاجات مالا يمكن إحصاؤه .

ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء في كل صلاة ، لفوط حاجتهم إليه .
فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى هذا الدعاء .

وإنما يعرف بعض قدر هذا الدعاء من اعتبار أحوال نفسه ونفوس الإنس والجن ، والمأمورين بهذا الدعاء . ورأى ما في النفوس من الجهل والظلم الذي يقتضى شقاءها في الدنيا والآخرة ، فيعلم أن الله — بفضله ورحمته — جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير ، المانعة من الشر .

[العبرة في قصص الأنبياء]

٥٣ — وما يبين ذلك : أن الله تعالى لم يقص علينا في القرآن قصة أحد إلا لنعبر بها ، لما في الاعتبار بها من حاجتنا إليه ومصلحتنا .

وإنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثاني بالأول ، وكانا مشتركين في المقتضى للحكم ، فلو أن في نفوس الناس من جنس ما كان في نفوس المكذبين للرسل — فرعون ومن قبله — لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لا نشبهه قط ، ولسكن الأمر

كما قال تعالى : ﴿ مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرَّسُولِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ (١) وكما قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ ، إِلَّا قَالُوا : سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٣) وقال تعالى ﴿ يَضَاهَتُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِ ﴾ (٤).

[إنها السنن]

٥٤ — ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لتسلكن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضبٍ لدختموه . قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » .

وقال : « لتأخذن أمتي مأخذ الأمم قبلها : شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع . قيل : يا رسول الله ، فارس الروم ؟ قال : فمن ؟ » وكلا الحديثين في الصحيحين . ولما كان في غزوة حنين كان للمشركين شجرة — يقال لها : ذات أنواط ، يعلقون عليها أسلحتهم ، وينوطونها بها ، ويستظلون بها متبركين . فقال بعض الناس : « يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال : الله أكبر ! قلت كما قال قوم موسى لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . إنها السنن . لتركين سنن من كان قبلكم » .

وقد بين القرآن : أن السيئات من النفس ، وإن كانت بقدر الله .

[أعظم السيئات]

٥٥ — فأعظم السيئات : جحود الخالق ، والشرك به ، وطلب النفس

(٢) الذاريات ٥٢

(٤) التوبة ٣٠ .

(١) فصلت ٤٣ .

(٣) البقرة ١١٨ .

أن تكون شريكة ونداً له ، أو أن تكون إلهاً من دونه . وكلا هذين وقع ، فإن فرعون طلب أن أن يكون إلهاً معبوداً دون الله تعالى . وقال : ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ ^(١) و ﴿ فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ ^(٢) وقال لموسى : ﴿ لن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ ^(٣) و ﴿ فاستغف قومه فأطاعوه ﴾ ^(٤) .

وإبليس يطلب أن يعبد ويطاع من دون الله ، فيريد : أن يعبد ويطاع هو ، ولا يعبد الله ولا يطاع .

وهذا الذى فى فرعون وإبليس هو غاية الظلم والجهل .

وفى نفوس سائر الإنس والجن : شعبة من هذا وهذا ، إن لم يكن الله العبد ويهديه ، وإلا وقع فى بعض ما وقع فيه إبليس وفرعون ، بحسب الإمكان . قال بعض العارفين : ما من نفس إلا وفيها ما فى نفس فرعون ، غير أن فرعون قدر فأظهر ، وغيره عجز فأضم .

وذلك : أن الإنسان إذا اعتبر ، وتعرف نفسه والناس ، وسمع أخبارهم : رأى الواحد منهم يريد لنفسه أن تطاع وتعلو بحسب قدرته .

[حب الرياسة والعلو]

٥٦ — فالنفس مشحونة بحب العلو والرياسة ، بحسب إمكانها ، فتجد أحدهم يوالى من يوافق على هواه ، ويعادى من يخالفه فى هواه ، وإماماً معبوده : ما يهواه ويريده قال تعالى : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تكون

(٢) التازعات ٢٤ .

(٤) الزخرف : ٥٤ .

(١) القصص ٣٨

(٣) الشعراء ٢٩ .

عليه وكيلاً؟^(١) والناس عنده في هذا الباب : كما هم عند ملوك الكفار من للشركيين من الترك وغيرهم . يقولون « يارباعى » أى صديق وعدو . فمن وافق هوام : كان ولياً ، وإن كان كافراً مشركاً . ومن لم يوافق هوام : كان عدواً ، وإن كان من أولياء الله المتقين . وهذه حال فرعون .

والواحد من هؤلاء : يريد أن يطاع أمره بحسب إمكانه ، لكنه لا يتمكن مما تمكن منه فرعون : من دعوى الإلهية ، وجحود الصانع .

وهؤلاء - وإن كانوا يقرون بالصانع - لكنهم إذا جاءهم من يدعوهم إلى عبادته وطاعته التضمنية ترك طاعتهم : فقد يعادونه ، كما عادى فرعون موسى .

وكثير من الناس ممن عنده بعض عقل وإيمان ، لا يطلب هذا الحد ، بل يطلب لنفسه ما هو عنده فإن كان مطاعاً مسلماً : طلب أن يطاع في أغراضه ، وإن كان فيها ما هو ذنب ومعصية لله ، ويكون من أطاعه في هواه : أحب إليه وأعز عنده ممن أطاع الله وخالف هواه . وهذه شعبة من حال فرعون ، وسائر المكذبين للرسول .

وإن كان عالماً - أو شيخاً - أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره ، حتى لو كانا يقرآن كتاباً واحداً كالقرآن ، أو يعبدان عبادة واحدة متماثلان فيها ، كالصلوات الخمس ، فإنه يحب من يعظمه بقبول قوله ، والافتداء به : أكثر من غيره . وربما أبغض نظيره وأتباعه حسداً وبغياً ، كما فعلت اليهود لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم يدعو إلى مثل ما دعا إليه موسى . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : آمِنُوا بما أنزل الله قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه ،

وهو الحق مصداقاً لما معهم ﴿١﴾ وقال تعالى : ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ ﴿٢﴾ وقال تعالى : ﴿وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم﴾ ﴿٣﴾ .

[عمل بنى إسرائيل كعمل فرعون]

٥٧ — ولهذا أخبر الله تعالى عنهم بنظير ما أخبر به فرعون . وسلط عليهم من انتقم به منهم ، فقال تعالى عن فرعون : ﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً . يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستحي نساءهم ، إنه كان من الفاسدين﴾ ﴿٤﴾ وقال تعالى عنهم : ﴿وقضينا إلى بنى إسرائيل في الكتاب : لتفسدن في الأرض مرتين . ولتعلن علواً كبيراً﴾ ﴿٥﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً﴾ ﴿٦﴾ .

والله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لعبادته ، ليدكروه ، ويشكروه . ويعبدوه . وأرسل الرسل ، وأنزل الكتب ليعبدوا الله وحده ، وليكون الدين كله لله ، ولتكون كلمة الله هي العليا ، كما أرسل كل رسول بمثل ذلك . قال تعالى : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ ﴿٧﴾ وقال تعالى : ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا : أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟﴾ ﴿٨﴾ .

وقد أمر الله الرسل كلهم بهذا ، وأن لا يتفرقوا فيه . فقال : ﴿إن هذه

(١) البقرة ٩١ .

(٢) البينة ٤ .

(٣) القصص ٤ .

(٤) القصص ٨٣ .

(٥) الزخرف ٤٥ .

(٦) البقرة ٩١ .

(٧) الشورى ١٤ .

(٨) الإسراء ٤ .

(٩) الأنبياء ٢٥ .

أمتكم أمة واحدة . وأنا ربكم فاعبدون ﴿١﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ؛ إني بما تعملون عليم . وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون . فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً ، كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ (٢) .

قال قتادة : أى دينكم دين واحد ، وربكم رب واحد ، والشرعية مختلفة . وكذلك قال الضحاك عن ابن عباس « إن هذه أمتكم أمة واحدة » أى دينكم دين واحد . قال ابن أبي حاتم : وروى عن سعيد بن جبير ، وقاتادة وعبد الرحمن ابن زيد نحوه ذلك . وقال الحسن : بين لهم ما يتقون وما يأتون . ثم قال : إن هذه سنتكم سنة واحدة .

وهكذا قال جمهور المفسرين .

[معنى الأمة]

٥٨ - و « الأمة » الملة والطريقة ، كما قال تعالى ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون - مقتدون ﴾ (٣) كما يسمى « الطريق » إماماً . لأن السالك فيه يأتى به ، فكذلك السالك يؤمّه ويقصده .

و « الأمة » أيضاً معلم الخير ، الذى يأتى به الناس ، كما أن « الإمام » هو الذى يأتى به الناس ، وإبراهيم عليه السلام جعله الله إماماً ، وأخبر أنه : ﴿ كان أمة ﴾ (٤) .

وأمر الله الرسل أن تكون ملتهم ودينهم واحداً ، لا يتفرون فيه ، كما فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنا معشر الأنبياء ديننا

(١) الأنبياء ٩٢ .

(٢) المؤمنون ٥١ - ٥٣ .

(٣) الزخرف ٢٢ ، ٢٣ .

(٤) النحل ١٢٠ .

واحد « وقد قال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه ﴾ ^(١) ولهذا كان جميع رسل الله وأنبيائه يصدق بعضهم بعضاً لا يختلفون ، مع تنوع شرائعهم .

[أتباع الرسل المخلصون]

٥٩ — فمن كان من المطاعين — من العلماء والمشايع والأمراء والملوك — متبعاً للرسل . أمر بما أمروا به ، ودعا إلى ما دعوا إليه ، وأحب من دعا إلى مثل ما دعا إليه ، فإن الله يحب ذلك ؛ فيحب ما يحبه الله تعالى ، وهذا قصده في نفس الأمر . أن تكون العبادة لله تعالى وحده ، وأن يكون الدين كله لله . وأما من كان يكره أن يكون له نظير يدعو إلى ذلك : فهذا يطلب أن يكون هو المطاع المعبود ، فله نصيب من حال فرعون وأشباهه .

فمن طلب أن يطاع دون الله : فهذا حال فرعون ، ومن طلب أن يطاع مع الله : فهذا يريد من الناس أن يتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والله سبحانه وتعالى أمر : أن لا يعبد إلا إياه ، وأن لا يكون الدين إلا له ، وأن تكون الموالاة فيه ، والمعادة فيه ، وأن لا يتوكل إلا عليه ، ولا يستعان إلا به .

فالؤمن المتبع للرسل : يأمر الناس بما أمرتهم به الرسل ، ليكون الدين كله لله لا له ، وإذا أمر أحد غيره بمثل ذلك : أحبه وأعانه ، وسر بوجوه مطلوبة . وإذا أحسن إلى الناس ، فإنما يحسن إليهم : ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ويعلم أن الله قد منّ عليه بأن جعله محسناً ، ولم يجعله مسيئاً ، فيرى أن عمله لله ، وأنه بالله . وهذا مذكور في فاتحة الكتاب ، التي ذكرنا : أن جميع الخلق محتاجون إليها أعظم من حاجتهم إلى أى شيء .

ولهذا فوضت عليهم قراءتها في كل صلاة دون غيرها من السور، ولم ينزل في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في القرآن مثلها، فإن فيها: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.

[المؤمن عمله لله وبالله]

٦٠ — فالمؤمن يرى أن عمله لله : لأنه إياه يعبد ، وأنه بالله لأنه إياه يستعين . فلا يطلب ممن أحسن إليه جزاء ولا شكوراً ، لأنه إنما عمل له ما عمل لله ، كما قال الأبرار: ﴿إنما نطعمكم لوجه الله ، لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً﴾^(١) ولا يمين عليه بذلك ولا يؤذيه ، فإنه قد علم : أن الله هو اللان عليه ، إذ استعمله في الإحسان ، وأن المنة لله عليه ، وعلى ذلك الشخص فعليه هو : أن يشكر الله . إذ يسره ليسرى ، وعلى ذلك : أن يشكر الله ، إذ يسر له من يقدم له ما ينفعه من رزق ، أو علم أو نصر ، أو غير ذلك .

ومن الناس : من يحسن إلى غيره ليمين عليه ، أو يرد الإحسان له بطاعته إليه وتعظيمه ، أو نفع آخر . وقد يمين عليه ، فيقول : أنا فعلت بك كذا . فهذا لم يعبد الله ولم يستعنه ، ولا عمل لله ، ولا عمل بالله ، فهو المرائي .

وقد أبطل الله صدقة اللنان ، وصدقة المرائي . قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى ، كالأذى ينفق ماله رثاء الناس ، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فثله كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وابل فتركه صلداً ، لا يقدر على شيء مما كسبوا ، والله لا يهدي القوم الكافرين ، ومثل الذين ينفقون أموالهم اجتفاء مرضات الله ، وتثبيتاً من أنفسهم : كمثل جنة بربوة أصابها وابل ، فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل . والله بما تعملون بصير﴾^(٢) .

قال قتادة : « تثبتت من أنفسهم » احتساباً من أنفسهم ، وقال الشعبي :
 يقيفاً وتصديقاً من أنفسهم ، وكذلك قال الكلبي ، قيل : يخرجون الصدقة
 طيبة بها أنفسهم . وعلى يقين الثواب ، وتصديق بوعد الله ، يعلمون : أن
 ما أخرجوه خير لهم مما تركوه .

قلت : إذا كان المعطى محتسباً للأجر عند الله مصداقاً بوعد الله له : طلب
 من الله ، لا من الذي أعطاه ، فلا يمين عليه . كما لو قال رجل لآخر : أعط
 مما ليك هذا الطعام ، وأنا أعطيك ثمنه ، لم يمين على المالك ، لاسيما إذا كان
 يعلم أن الله قد أنعم عليه بالإعطاء .

فصل

[الذنوب ابتلاء]

٦١ — الفرق السادس : أن يقال : إن ما يتلى به العبد من الذنوب
 الوجودية — إن كانت خلقاً لله — فهو عقوبة له على عدم فعله ما خلقه الله له ،
 وفطره عليه . فإن الله إنما خلقه لعبادته وحده لا شريك له ، ودلّه على الفطرة ،
 كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة » وقال تعالى :
 ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل نخلق
 الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ^(١) .

فهو لما لم يفعل ما خلق له ، وما فطر عليه ، وما أمر به — من معرفة الله
 وحده ، وعبادته وحده — عوقب على ذلك ، بأن زين له الشيطان ما يفعله من
 الشرك والمعاصي .

قال تعالى للشيطان : ﴿ اذهب : فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء
 موفوراً — إلى قوله — إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ ^(٢) وقال تعالى : ﴿ إنه

ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون^(١) وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا ، فَإِذَا هم مبصرون . وإخوانهم يمدونهم في النفي ثم لا يقصرون^(٢) .

[الإخلاص شفاء]

٦١ - قد تبين : أن إخلاص الدين لله : يمنع من تسلط الشيطان ، ومن ولاية الشيطان التي توجب العذاب . كما قال تعالى : ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين^(٣) .

فإذا أخلص العبد لربه الدين : كان هذا مانعاً له من فعل ضد ذلك ومن إيقاع الشيطان له في ضد ذلك ، وإذا لم يخلص لربه الدين ولم يفعل ما خلق له وفطر عليه . عوقب على ذلك ، وكان من عقابه : تسلط الشيطان عليه ، حتى يُزَيِّن له فعل السيئات ، وكان إلهامه لفجوره : عقوبة له على كونه لم يتق الله . وعدم فعله للحسنات : ليس أمراً وجودياً ، حتى يقال : إن الله خلقه ، بل هو أمر عدمي ، لكن يعاقب عليه لكونه : عدم ما خلق له ، وما أمر به ، وهذا يتضمن العقوبة على أمر عدمي ، لكن بفعل السيئات لا بالعقوبات التي يستحقها بعدم إقامة الحجة عليه بالنار ونحوها .

وقد تقدم أن مجرد عدم المأمور : هل يعاقب عليه ؟ فيه قولان .
والأكثر يقولون : لا يعاقب عليه لأنه عدم محض ، ويقولون : إنما يعاقب على الترك ، وهذا أمر وجودي .

وطائفة - منهم : أبو هاشم - قالوا : بل يعاقب على هذا العدم . بمعنى أنه يعاقب عليه ، كما يعاقب على فعل الذنوب بالنار ونحوها .

(٢) الأعراف ٢٠١ ، ٢٠٢

(١) النحل ٩٩ ، ١٠٠ .

(٣) يوسف ٢٤ .

وما ذكر في هذا الوجه ؛ هو أمر وسط : وهو أن يعاقبه على هذا العدم بفعل السيئات ، لا بالعقوبة عليها ، ولا يعاقبه عليها حتى يرسل إليه رسوله ، فإذا عصى الرسول : استحق حينئذ العقوبة التامة . وهو أولا إنما عوقب بما يمكن أن ينجو من شره ، بأن يتوب منه ، أو بأن لا تقوم عليه الحجة ، وهو كالصبي الذي لا يشتغل بما ينفعه ، بل بما هو سبب لضرره ، ولكن لا يكتب عليه قلم الإثم حتى يبلغ . فإذا بلغ عوقب .

ثم ما تعود من فعل السيئات : قد يكون سببا لمعصيته بعد البلوغ ، وهو لم يعاقب إلا على ذنبه ، ولكن العقوبة المعروفة : إنما يستحقها بعد قيام الحجة عليه . وأما اشتغاله بالسيئات : فهو عقوبة عدم عمله للحسنات .

[الشر ليس إلى الله]

٦٣ - وعلى هذا : فالشر ليس إلى الله بوجه من الوجوه فإنه - وإن كان الله خالق أفعال العباد - نقله للطاعات : نعمة ورحمة ، وخلق السيئات : له فيه حكمة ورحمة . وهو - مع هذا - عدل منه . فما ظلم الناس شيئا ولكن الناس ظلموا أنفسهم .

وظلمهم لأنفسهم نوعان : عدم عملهم بالحسنات . فهذا ليس مضافا إليه . وعماهم للسيئات : خلقه عقوبة لهم على ترك فعل الحسنات التي خلقهم لها ، وأوهم بها . فكل نعمة منه فضل ؛ وكل نقمة منه عدل .

ومن تدبر القرآن تبين له أن عامة ما يذكره الله في خلق الكفر والمعاصي يجعله جزاء لذلك العمل . كقوله تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ ^(١) ، وقال تعالى : ﴿ فلما زاغوا

أزاع الله قلوبهم ﴿١﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ﴾ ﴿٢﴾ .

وهذا وأمثاله : بذلوا فيه أعمالا عاقبهم بها على فعل محذور وترك مأمور .
وتلك الأمور إنما كانت منهم وولدت فيهم لكونهم لم يفعلوا ما خلقوا له ، ولا بد لهم من حركة وإرادة ، فلما لم يتحركوا بالحسنات حرّكوا بالسيئات ، عدلا من الله ، حيث وضع ذلك موضعه في محله القابل له — وهو القلب الذى لا يكون إلا عاملا — فإذا لم يعمل الحسنة استعمل في عمل السيئة . كما قيل :
نفسك إن لم تشغلها شغلتك .

وهذا الوجه — إذا حقق — يقطع مادة كلام القدوة المكذبة ، والمجبرة الذين يقولون : إن أفعال العباد ليست مخلوقة لله . ويعملون خلقها والتعذيب عليها ظلما . والذين يقولون : إنه خلق كفر الكافرين ومعصيتهم ، وعاقبهم على ذلك لا لسبب ولا لحكمة .

فإذا قيل لأولئك : إنه إنما أوقعهم في تلك الذنوب ، وطبع على قلوبهم عقوبة لهم على عدم فعلهم ما أمرهم به ، فما ظلمهم ولكن هم ظلموا أنفسهم .
يقال : ظلّمته إذا نقصته حقه . قال تعالى : ﴿ كلتا الجنّتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا ﴾ ﴿٣﴾ .

وكثير من أولئك يسلّمون أن الله خلق للعبد من الأعمال ما يكون جزاء له على عمل منه متقدم . ويقولون : إنه خلق طاعة المطيع .
فلا ينازعون في نفس خلق أفعال العباد . لكن يقولون . ما خلق شيئا من الذنوب ابتداء . بل إنما خلقها جزاء لثلا يكون ظلما .

[التذنب يحدثه العبد]

٦٤ — فنقول : أول ما يفعله العبد من الذنوب : هو أحدثه ، لم يحدثه الله . ثم ما يكون جزاء على ذلك : فأنه أحدثه ؛ وهم لا ينازعون في مسألة خلق الأفعال إلا من هذه الجهة . وهذا الذى ذكرناه يوافقون عليه . لكن يقولون : أول الذنوب لم يحدثه الله ، بل يحدثه العبد ، لتلا يكون الجزاء عليه ظلمًا .

وما ذكرناه : يوجب أن الله خالق كل شيء ، فاحدث شيء إلا بمشيئته وقدرته ، ولكن أول الذنوب الوجودية : هو المخلوق . وذلك عقوبة على عدم فعل العبد لما خلق له ، ولما كان ينبغي له أن يفعله .

وهذا العدم لا يجوز إضافته إلى الله ، وليس بشيء حتى يدخل في قولنا : ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ وما أحدثه من الذنوب الوجودية فأولها : عقوبة للعبد على هذا العدم . وسائرهما : قد يكون عقوبة للعبد على ما وجد . وقد يكون عقوبة له على استمراره على العدم .

فإدام لا يخلص الله العمل : فلا يزال مشركًا ولا يزال الشيطان مسلطًا عليه .

ثم تخصيصه سبحانه لمن هداه - بأن استعمله ابتداء فيما خلق له ، وهذا لم يستعمله - هو تخصيص منه بفضله ورحمته . ولهذا يقول الله : ﴿ والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ ^(١) . ولذلك حكمة ورحمة هو أعلم بها كما خص بعض الأبدان بقوى لا توجد في غيرها ، وبسبب عدم القوة قد تحصل له أمراض وجودية وغير ذلك من حكمته .

وبتحقيق هذا يدفع شبهات هذا الباب . والله أعلم بالصواب .

فصل

[عقوبة عدم الإيمان]

٦٥ - وما ذكر فيه العقوبة على عدم الإيمان ، قوله تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ ^(١) وهذا من تمام قوله : ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ﴾ الآية . فذكر : أن هذا التقايب إنما حصل لقلوبهم لما لم يؤمنوا به أول مرة ، وهذا عدم الإيمان .

لكن يقال : إنما كان هذا بعد دعوة الرسول لهم ، وهم قد تركوا الإيمان وكذبوا الرسول . وهذه أمور وجودية ، لكن اللوجب للعذاب : هو عدم الإيمان ، وما ذكر شرط في التعذيب ، بمنزلة إرسال الرسول ، فإنه قد يشتغل عن الإيمان بما جنسه مباح - من أكل وشرب ، وبيع وسفر ، وغير ذلك - وهذا الجنس لا يستحق عليه العقوبة ، إلا لأنه شغله عن الإيمان الواجب عليه .

ومن الناس من يقول : ضد الإيمان هو تركه . وهو أمر وجودي ، لا ضده إلا ذلك .

فصل

[النعم كلها من الله]

٦٦ - الفرق السابع : من الحسنات والسيئات التي تتناول الأعمال والجزاء في كون هذه تضاف إلى النفس ، وتلك تضاف إلى الله : أن السيئات التي تصيب الإنسان - وهي مصائب الدنيا والآخرة - ليس لها سبب إلا ذنبه الذي هو نفسه ، فأنحصرت في نفسه .

وأما ما يصيبه من الخير والنعم : فإنه لا تنحصر أسبابه ؛ لأن ذلك من فضل الله وإحسانه ، ويحصل بعمله وبغير عمله ، وعمله نفسه من إنعام الله عليه ، وهو سبحانه لا يجزى بقدر العمل ، بل يضاعفه له . ولا يقدر العبد على ضبط أسبابها ، لكن يعلم أنها من فضل الله وإنعامه ، فيرجع فيها إلى الله ، فلا يرجو إلا الله ، ولا يتوكل إلا عليه ، ويعلم أن النعم كلها من الله ، وأن كل ما خلقه فهو نعمة ، كما تقدم ، فهو يستحق الشكر المطلق العام ، الذى لا يستحقه غيره .

ومن الشكر : ما يكون جزاء على ما يسره على يديه من الخير ، كشكر الوالدين وشكر من أحسن إليك من غيرها ، فإنه « من لا يشكر الناس لا يشكر الله » ، لكن لا يبلغ من حق أحد وإنعامه ، أن يشكر بمعصية الله ، أو أن يطاع بمعصية الله ، فإن الله هو المنعم بالنعم العظيمة ، التى لا يقدر عليها مخلوق ، ونعمة المخلوق إنما هى منه أيضاً . وقال تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ﴾ (٢) ، وجزاؤه سبحانه على الطاعة والمعصية والكفر لا يقدر أحد على مثله .

[لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق]

٦٧ - فلهذا لم يجز أن يطاع مخلوق فى معصية الخالق ، كما قال تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ، وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ (٣) ، وقال فى الآية الأخرى : ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفان ، واتبع سبيل من أناب إلى ﴾ (٤) .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « على المرء للسلم :

(٢) الجاثية ١٣

(٤) لقمان ١٥

(١) النحل ٥٣

(٣) النكوت ٨

السمع والطاعة في عمره ويسره ، ومنشطه ومكرهه ، ما لم يؤمر بمعصية ؛ فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » . وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنما الطاعة في المعروف » وقال : « من أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه » وقال : « لا طاعة لمخلوق على معصية الخالق » .

وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

والقصد هنا : أنه إذا عرف أن النعم كلها من الله ، وأنه لا يقدر أن يأتي بها إلا الله . فلا يأتي بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب السيئات إلا هو ، وأنه ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ^(١) صار توكله ورجاؤه ودعاؤه للخالق وحده .

وكذلك إذا علم ما يستحقه الله من الشكر - الذي لا يستحقه غيره - صار علمه بأن الحسنات من الله : يوجب له الصدق في شكر الله ، والتوكل عليه .

ولو قيل : إنها من نفسه لكان غلطاً ؛ لأن منها ما ليس لعمله فيه مدخل . وما كان لعمله فيه مدخل ؛ فإن الله هو المنعم به ؛ فإن لا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه .

وعلم أن الشر قد انحصر سببه في النفس ، فضبط ذلك وعلم من أين يؤتى ، فاستغفر ربه مما فعل وتاب ، واستعان الله واستعاذ به مما لم يعمل بعد ، كما قال من قال من السلف : « لا يرجون عهد إلا ربه . ولا يخافون عيب إلا ذنبه » .

وهذا يخالف قول الجهمية ومن اتبعهم ، للذين يقولون : إن الله يعذب بلا ذنب ، ويعذب أطفال الكفار وغيرهم عذاباً دائماً أبداً بلا ذنب .

فإن هؤلاء يقولون : يخاف الله خوفاً مطلقاً . سواء كان له ذنب أو لم

يكن له ذنب ، ويشبهون خوفه بالخوف من الأسد ، ومن الملك القاهر الذى لا ينضبط فعله ولا سطوته ، بل قد يقهر ويعذب من لا ذنب له من رعيته .
 فإذا صدق العبد بقوله تعالى : ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ علم بطلان هذا القول ، وأن الله لا يعذبه ويعاقبه إلا بذنوبه ، حتى المصائب التى تصيب العبد كلها بذنوبه .

وقد تقدم قول السلف - ابن عباس وغيره - أن ما أصابهم يوم أحد من الغم والفشل ؛ إنما كان بذنوبهم ، لم يستثن من ذلك أحد .
 وهذا من فوائد تخصيص الخطاب ، لئلا يظن أنه عام مخصوص .
 وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ، ولا هم ولا حزن ولا غم - حتى الشوكة يشاكها - إلا كفر الله بها من خطاياها » .

فصل

[خبث السيئات]

٦٨ - الفرق الثامن : إن السيئة إذا كانت من النفس ، والسيئة خبيثة مذمومة ، وصفها بالخبث فى مثل قوله : ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ﴾^(١) .

قال جمهور السلف : الكلمات الخبيثة للخبيثين ، ومن كلام بعضهم : الأقوال والأفعال الخبيثة للخبيثين .

وقد قال تعالى ﴿ ضرب الله مثلا : كلمة طيبة - ومثل كلمة خبيثة ﴾^(٢) .
 وقال الله ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾^(٣) والأقوال والأفعال صفات القائل والقائل .

فإذا كانت النفس متصفقة بالسوء والخبيث لم يكن محلها ينفعه إلا ما يناسبها .
 فمن أراد : أن يجعل الحيات والعقارب يعاشررون الناس كالسنائير : لم يصلح .
 ومن أراد : أن يجعل الذى يكذب شاهداً على الناس : لم يصلح .

وكذلك من أراد : أن يجعل الجاهل معلماً للناس ، مفتياً لهم ، أو يجعل
 العاجز الجبان مقاتل عن الناس ، أو يجعل الأحمق الذى لا يعرف شيئاً سائساً
 للناس ، أو للدواب ، فتل هذا يوجب الفساد فى العالم ، وقد يكون غير ممكن ،
 مثل ما أراد أن يجعل الحجارة تسبح على وجه الماء كالسفن ، أو تصعد إلى
 السماء كالريح ، ونحو ذلك .

فالنفوس الخبيثة لا تصلح أن تكون فى الجنة الطيبة التى ليس فيها من
 الخبيث شيء ، فإن ذلك موجب للفساد ، أو غير ممكن .

بل إذا كان فى النفس خبث طهرت وهذبت ، حتى تصلح لسكنى الجنة .
 كما فى الصحيح من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله
 عليه وسلم : « إن المؤمنين إذا نجوا من النار — أى عبروا الصراط —
 وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت
 بينهم فى الدنيا . فإذا هذبوا وقفوا . أذن لهم فى دخول الجنة » .

وهذا مما رواه البغارى عن أبى سعيد الخدرى قال : وقال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم : « يخلص المؤمنون من النار . فيجسسون على قنطرة بين
 الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى
 إذا هذبوا وقفوا : أذن لهم فى دخول الجنة ، فوالذى نفس محمد بيده لأحدم
 أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله كان فى الدنيا » .

والتهذيب : التخلص ، كما يهذب الذهب : فيخلص من الفس .

فتبين أن الجنة إنما يدخلها المؤمنون بعد التهذيب والتنقية من بقايا الذنوب ، فكيف يمكن لمن لم يكن له حسنات يعبر بها الصراط ؟ .

وأيضاً فإذا كان سببها ثابتاً فالجزاء كذلك ، بخلاف الحسنات ، فإنها من إتمام الحى القيوم الباقى ، الأول الآخر ، فسببها دائم ، فيدوم بدوامه .

وإذا علم الإنسان أن السيئة من نفسه : لم يطمع فى السعادة التامة ، مع مافيه من الشر ، بل علم تحقيق قوله تعالى : ﴿ من يعمل سوءاً يُجْزَ به ﴾ ^(١) وقوله ﴿ فمن يعمل مثقالاً ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ ^(٢) .

وعلم أن الرب عليم حلیم ، رحيم عدل ، وأن أفعاله جارية على قانون العدل والإحسان ، وكل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل .

وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يمين الله ملأى ، لا يفيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار . أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ؟ فإنه لم يفض مافى يمينه ، والقسط بيده الأخرى يخفض ويرفع » .

[الثواب والعقاب ، بحكمة وعدل]

٩٦ - وعلم فساد قول الجهمية ، الذين يحملون الثواب والعقاب بلا حكمة ولا عدل ، ولا وضع للأشياء مواضعها ، فيصفون الرب بما يوجب الظلم والسفه ، وهو سبحانه قد شهد (أنه لا اله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط . لا اله إلا هو العزيز الحكيم) ^(٣) .

ولهذا يقولون : لا ندرى ما يفعل بمن فعل السيئات ، بل يجوز عندهم . أن يعفو عن الجميع ، ويجوز عندهم : أن يعذب الجميع ، ويجوز أن يعذب ويفقر بلا موازنة ، بل يعفو عن شر الناس ، ويعذب خير الناس على سيئة صغيرة ، ولا يفقرها له .

وم يقولون : السيئة لا تمحى ، لا بتوبة ، ولا حسنات ماحية ، ولا غير ذلك . وقد لا يفرقون بين الصغائر والكبائر .

قالوا : لأن هذا كله إنما يعلم بالسمع والخبر . خبر الله ورسوله .

قالوا : وليس فى الكتاب والسنة ما يبين ما يفعل الله بمن كسب السيئات ، إلا الكفر ، وتأولوا قوله تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَسْكَرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ ^(١) بأن المراد بالكبائر : قد يكون هو الكفر وحده ، كما قال تعالى : ﴿ إِن الله لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ ^(٢) .

وقد ذكر هذه الأمور القاضى أبو بكر الباقلانى وغيره ، ممن يقول بمثل هذه الأقوال من سلك مسلك جهنم بن صفوان فى القدر وفى الوعيد ، وهؤلاء قصدوا مناقشة المعتزلة فى القدر والوعيد .

فأولئك لما قالوا : إن الله لم يخلق أعمال العباد ، وأنه يشاء ما لا يكون ، ويكون ما لا يشاء ، وسلوكوا مسلك نفاة القدر فى هذا ، وقالوا فى الوعيد بنحو قول الخوارج . قالوا : إن من دخل النار لا يخرج منها ، لا بشفاعة ولا غيرها بل يكون عذابه مؤبداً ، فصاحب الكبيرة ، أو من رجحت سيئاته - عندهم - لا يرحمه الله أبداً ، بل يخلده فى النار ، نفاقوا السنة للتواترة وإجماع الصحابة فيما قالوه فى القدر ، وناقضهم جهنم فى هذا وهذا .

وسلك هؤلاء مسلك جهنم ، مع انتسابهم إلى السنة والحديث واتباع السلف ، وكذلك سلكوا فى الإيمان والوعيد مسلك المرجئة الفلاة ، كجهنم وأتباعه .

[جهنم وبدعته]

٧٠ - وجهنم اشتهر عنه نوعان من البدعة : نوع فى الأسماء والصفات ،

فغلا في نفي الأسماء والصفات ، وواقفه على ذلك ملاحدة الباطنية
والفلاسفة ونحوهم ، وواقفه المعتزلة في نفي الصفات دون الأسماء .
والسكلائية - ومن واقفهم من السالمية ، ومن سلك مسلكهم من الفقهاء
وأهل الحديث والصوفية - واقفوه على نفي الصفات الاختيارية ، دون نفي أهل
الصفات .

والسكراوية ونحوهم : واقفوه على أصل ذلك ، وهو امتناع دوام ما لا
يتناهى ، وأنه يتمتع أن يكون الله لم يزل متكما إذا شاء ، وفعالا لما يشاء إذا
شاء ، لامتناع حوادث لا أول لها ، وهو - عن هذا الأصل الذى هو نفي
وجود ما لا يتناهى في المستقبل - قال بفناء الجنة والنار .

وقد واقفه أبو الهذيل لإمام المعتزلة على هذا ، لكن قال : يتنهى الحركات .
فالمعتزلة في الصفات مخانيث الجهمية .

وأما السكلائية : فيثبتون الصفات في الجملة ، وكذلك الأشعريون ،
ولسكنهم كما قال الشيخ أبو إسماعيل الأنصارى - الجهمية الإناث ، وهم
مخانيث المعتزلة .

ومن الناس من يقول : المعتزلة مخانيث الفلاسفة .

وقد ذكر الأشعري وغيره هذا ، لأن قائله لم يعلم أن جهما سبق هؤلاء
إلى هذا الأصل ، أو لأنهم مخانيثهم من بعض الوجوه ، وإلا فإن مخالفتهم
للفلاسفة كبيرة جداً .

والشهرستاني يذكر عن شيوخهم : أنهم أخذوا ما أخذوا عن الفلاسفة ،
لأن الشهرستاني إنما يرى مناظرة أصحاب الأشعرية في الصفات ونحوها مع
المعتزلة ، بخلاف أئمة السنة والحديث فإن مناظرتهم إنما كانت مع الجهمية ،
وهم المشهورون عند السلف والأمة بنفي الصفات .

وأهل النفي للصفات والتعطيل لها : هم عند السلف ، يقال لهم : الجهمية ، وبهذا تميزوا عند السلف عن سائر الطوائف .

[نشأة المعتزلة والجهمية]

٧١ - وأما المعتزلة : فامتازوا بقولهم بالمنزلة بين المنزلتين ، لما أحدث ذلك عمرو بن عبيد ، وكان هو وأصحابه يجلسون معتزلين للجماعة ، فيقول قتادة وغيره : أولئك المعتزلة . وكان ذلك بعد موت الحسن البصري في أوائل المائة الثانية .

وبعدهم حدثت الجهمية .

وكان القدر : قد حدث أهله قبل ذلك في خلافة عبد الله بن الزبير ، بعد موت معاوية ، ولهذا تكلم فيهم ابن عمر وابن عباس - رضي الله عنهم - وغيرهما . وابن عباس مات قبل ابن الزبير ، وابن عمر مات عقب موته ، وعقب ذلك تولى الحجاج العراق سنة بضع وسبعين .

فبقى الناس يخوضون في القدر بالحجاز والشام والعراق ، وأكثره : كان بالشام والعراق بالبصرة ، وأقله : كان بالحجاز .

ثم لما حدثت المعتزلة - بعد موت الحسن ، وتكلم في المنزلة بين المنزلتين ، وقالوا بإفاد الوعيد ، وخلود أهل التوحيد في النار ، وأن النار لا يخرج منها من دخلها . وهذا تغليظ على أهل الذنوب - ضموا إلى ذلك القدر ، فإن به يتم التغليظ على أهل الذنوب ، ولم يكن الناس إذ ذاك قد أحدثوا شيئاً من نفي الصفات .

[ظهور الجعد بن درهم]

٧٢ - إلى أن ظهر الجعد بن درهم ، وهو أولهم ، فضحى به خالد

ابن عبد الله القسري ، وقال : «أيها الناس ، ضحوا ، تقبل الله ضحاياكم ، فإنني موضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم ، أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً » ثم نزل فذبحه وهذا كان بالعراق . ثم ظهر جهنم بن صفوان من ناحية المشرق من ترمذ ، ومنها ظهر رأى جهنم . ولهذا كان علماء السنة والحديث بالمشرق ، أكثر كلاماً في رد مذهب جهنم من أهل الحجاز والشام والعراق ، مثل إبراهيم بن طهمان وخازجة بن مصعب ، ومثل عبد الله بن المبارك . وأمثالهم - وقد تكلم في ذمهم - وابن الملاجشون وغيرهما ، وكذلك الأوزاعي وحمد بن زيد وغيرهم .

[محنة الإمام أحمد بن حنبل]

٧٣ - وإنما اشتهرت مقالاتهم من حين محنة الإمام أحمد بن حنبل وغيره من علماء السنة ، فإنهم في إمارة المأمون قووا وكثروا . فإنه كان قد أقام بخراسان مدة ، واجتمع بهم ، ثم كتب بالحنة من طوسوس^(١) سنة ثمان عشرة ومائتين ، وفيها مات ، وردوا أحمد بن حنبل إلى الحبس ببغداد ، إلى سنة عشرين ، وفيها كانت محنته مع المعتصم ومناظرته لهم في الكلام ، فلما رد عليهم ما احتجوا به عليه ، وبين أن لا حجة لهم في شيء من ذلك ، وأن طلبهم من الناس أن يوافقوه ، وامتناعهم إياهم ، جهل وظلم . وأراد المعتصم إطلاقه ، فأشار عليه من أشار بأن المصلحة ضربه ، حتى لا تنكسر حرمة الخلافة مرة بعد مرة . فلما ضربوه قامت الشناعة عليهم في العامة ، وخافوا الفتنة ، فأطلقوه .

[القائلون بخلق القرآن]

٧٤ - وكان أحمد بن أبي دؤاد قد جمع له نفاة الصفات القائلين بخلق

(١) وكان خرج إليها لغزو الروم .

القرآن من جميع الطوائف ، فجمع له مثل أبي عيسى محمد بن عيسى بن غوث ،
ومن أكابر التجارية أصحاب حسين النجار .

وأئمة السنة - كان المبارك ، وأحمد بن إسحاق ، والبخاري وغيرهم -
يسمون جميع هؤلاء : جهمية .

وصار كثير من المتأخرين - من أصحاب أحمد وغيرهم - يظنون أن
خصومه كانوا المعتزلة .

ويظنون أن بشر بن غياث المريسي - وإن كان قد مات قبل محنة أحمد ،
وابن أبي دؤاد ونحوهما - كانوا معتزلة . وليس كذلك .

بل المعتزلة كانوا نوعاً من جملة من يقول القرآن مخلوق ، وكانت الجهمية
أتباع جهم ، والنجارية أتباع حسين النجار ، والضرارية أتباع ضرار بن
عمرو ، والمعتزلة هؤلاء يقولون : القرآن مخلوق : وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا : أن جهماً اشتهر عنه نوعان من البدعة . أحدهما : نفى
الصفات ، والثاني : الغلو في القدر والإرجاء . فجعل الإيمان مجرد معرفة
القلب ، وجعل العباد لا فعل لهم ولا قدرة .
وهذا مما غلت المعتزلة في خلافه فيهما .

[رأى الأشعري]

٧٥ - وأما الأشعري . فواقفه على أصل قوله ، ولكن قد ينازعه
منازعات لفظية .

وجههم لم يثبت شيئاً من الصفات - لا الإرادة ولا غيرها - فهو إذا قال :
إن الله يحب الطاعات ، ويبغض المعاصي ، فعنى ذلك عنده : الثواب والعقاب .
وأما الأشعري : فهو يثبت الصفات - كالإرادة - فاحتاج حينئذ أن يتكلم

في الإرادة : هل هي المحبة أم لا ؟ وأن المعاصي : هل يحبها الله أم لا ؟ فقال :
إن المعاصي يحبها الله ويرضاها ، كما يريدنا .

وذكر أبو المعاطي الجويني : أنه أول من قال ذلك ، وأن أهل السنة
قبله كانوا يقولون : إن الله لا يحب المعاصي .

وذكر الأشعري في الموجز : أنه قد قال ذلك قبله طائفة سمام ، أشك
في بعضهم .

[رأى المروى]

٧٦ - وشاع هذا القول في كثير من الصوفية ومشايخ المعرفة والحقيقة ،
فساروا يوافقون جهماً في مسائل الأفعال والقدر ، وإن كانوا مكفّرين له في
مسائل الصفات ، كأبي إسماعيل الأنصاري المروى ، صاحب كتاب « ذم
السلام » فإنه من المبالغين في ذم الجهمية لنفهم الصفات . وله كتاب « تكفير
الجهمية » ويبالغ في ذم الأشعرية ، مع أنهم من أقرب هذه الطوائف إلى
السنة والحديث ، وربما كان يلغهم .

وقد قال له بعض الناس - بحضرة نظام الملك - أتلعن الأشعرية ؟ فقال :
ألعن من يقول : ليس في السموات إله ، ولا في المصحف قرآن ، ولا في القبر
نبي ، وقام من عنده مضجاً .

ومع هذا فهو في مسألة إرادة الكائنات ، وخلق الأفعال ؛ أبلغ من
الأشعرية . لا يثبت سبباً ، ولا حكمة ، بل يقول : إن مشاهدة العارف الحكم
لا تبقى له استعسان حسنة ، ولا استعجاب سيئة .

والحكم عنده : هي المشيئة . لأن العارف المحقق - عنده - هو من يصل
إلى مقام الفناء ، فيفنى عن جميع مراداته بمراد الحق ، وجميع الكائنات مرادة
له ، وهذا هو الحكم عنده . و « الحسننة » و « السيئة » يفرقان في حظ العبد ،

لكونه ينعم بهذه ، ويعذب بهذه ، والالتفات إلى هذا هو من حظوظ النفس ، ومقام الفناء ليس فيه إلا مشاهدة . واد الحق .

[رأى الجنيد]

٧٧ - وهذه المسألة وقعت في زمن الجنيد ، كما ذكر ذلك في غير موضع . وبين لهم الجنيد الفرق الثاني ، وهو أنهم - مع مشاهدة المشيئة العامة . لا بد لهم من مشاهدة الفرق بين ما يأمر الله به وما ينهى عنه . وهو الفرق بين ما يحبه وما يبغضه ، وبين ذلك لهم الجنيد ، كما قال في التوحيد : هو أفراد الحوادث عن القدم .

فن سلك مسلك الجنيد من أهل التصوف والعرفة ، كان قد اهتدى ونجا وصعد ، ومن لم يسلك في القدر مسلكه ، بل سوى بين الجميع : لزمه أن لا يفرق بين الحسنات والسيئات ، وبين الأنبياء والفساق ، فلا يقول : إن الله يحب هؤلاء ، وهذه الأعمال ، ولا يبغض هؤلاء ، وهذه الأعمال . بل جميع الحوادث هو يحبها كما يريد ، كما قاله الأشعري . وإنما الفرق : أن هؤلاء ينعمون ، وهؤلاء يعذبون .

والأشعري لما أثبت الفرق بين هذا وهذا - بالنسبة إلى الخلق - كان أعقل منهم فإن هؤلاء يدعون أن العارف الواصل إلى مقام الفناء لا فرق بين هذا وهذا ، وهم غلطوا في حق العبد وحق الرب .

[مذهب الصوفية في الفناء وما يلزم عليه]

٧٨ - أما في حق العبد ، فيلزمهم أن تستوى عنده جميع الحوادث ، وهذا محال قطعاً ، وهم قد تمر عليهم أحوال يفتنون فيها عن أكثر الأشياء . أما الفناء عن جميعها : فمتنع ، فإنه لا بد أن يفرق كل حي بين ما يؤله

وبين ما يلذه ، فيفوق بين الخبز والتراب ، والماء والشراب .

فهؤلاء : عزلوا الفرق الشرعى الإيماني والرحاني الذى به فرق الله بين أوليائه وأعدائه ، وظنوا أنهم مع الجمع القدرى .

وعلى هذا : فإن تسوية العبد بين جميع الحوادث ممتنع لذاته ، بل لا بد للعبد من أن يفرق ، فإن لم يفرق بالفرق الشرعى - فيفوق بين محبوب الحق ومكروهه ، وبين ما يرضاه له وما يسخطه - وإلا فرق بالفرق الطبيعى بهواه وشيطانه ، فيحب ما تهواه نفسه ، وما يأمره به شيطانه .

ومن هنا : وقع منهم خلق كثير فى المعاصى وآخرون فى الفسوق ، وآخرون فى الكفر ، حتى جاوزوا عبادة الأصنام .

[وحدة الوجود]

٧٩ — ثم كثير منهم من ينتقل إلى وحدة الوجود ، وهم الذين خالفوا الجنيد ، وأئمة الدين فى التوحيد ، فلم يفرقوا بين القديم له المحدث .

وهؤلاء صرحوا بعبادة كل موجود ، كما بسط الكلام عليهم فى غير هذا الموضع ، وهو قول أهل الوحدة ؛ كابن عربى الحاتمى ، وابن سبعين ، والقونوى ، والتلمسانى ، والبلباني ، وابن الفارض ، وأمثالهم .

والمقصود هنا : الكلام على من نفى الحكم والعدل والأسباب فى القدر بين أهل الكلام والمتصوفة الذين أوقعوا جهماً فى هذا الأصل ، وهو بدعته الثانية التى اشتهرت عنه بخلاف الإرجاء ؛ فإنه منسوب إلى طوائف غيره .

[حكمة الله وعدله]

٨٠ — فهؤلاء يقولون : إن الرب يجوز أن يفعل كل ما يقدر عليه ،

ويمكن فعله من غير مراعاة حكمة ، ولا رحمة ولا عدل . ويقولون : إن مشيئته هي محبته .

ولهذا تجد من اتبعهم غير معظم للأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، بل هو منحل من الأمر الشرعى كله ، أو بعضه ، أو متكلف لما يعتقد أو يعلمه ، فإنهم أرادوا : أن الجميع بالنسبة إلى الرب سواء ، وأن كل ما شاء فقد أحبه ، وأنه يحدث ما يحدثه بدون أسباب يخلقه بها ، ولا حكمة يسوقه إليها ، بل غايته أنه يسوق المقادير إلى المواقيت .

لم يبق عندهم فرق في نفس الأمر بين للأمر والمحذور ؛ بل وافقوا جهماً ومن قال بقوله - كالأشعري - في أنه في نفس الأمر : لا حسن ولا سيء . وإنما الحسن والقبيح : مجرد كونه مأموراً به ومحظوراً ، وذلك فرق يعود إلى حظ العبد ، وهؤلاء يدعون الفناء عن الحفظ .

فتارة يقولون في امتثال الأمر والنهي إنه من مقام التلييس أو ما يشبه هذا . كما يوجد في كلام أبي إسماعيل الهروى صاحب منازل السائرين .

وقارة يقولون : يفعل هذا لأهل المارستان ، أى العامة ، كما يقوله الشيخ المغربي ، إلى أنواع ، ليس هذا موضع بسطها .

[فى كلام الشاذلى تمطيل الأمر]

٨١ - ومن يسلك مسلكهم : غايته - إذا عظم الأمر والنهي - أن يقول ، كما نقل عن الشاذلى : يكون الجمع في قلبك مشهوداً ، والفرق على لسانك موجوداً .

ولهذا يوجد في كلامه وكلام غيره : أقوال وأدعية وأحزاب تستلزم تعطيل الأمر والنهي مثل أن يدعو : أن يعطيه الله إذا عصاه أعظم مما يعطيه إذا أطاعه . ونحو هذا مما يوجب أنه يجوز عنده : أن يجعل الذين اجترحوا السيئات ، كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، بل أفضل منهم ، ويدعون بأدعية فيها اعتداء ، كما يوجد في جواب الشاذلي . وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

[الكرامات عند الصوفية]

٨٢ - وآخرون - من عوام هؤلاء يجوزون : أن يكرم الله بكرامات أكابر الأولياء من يكون فاجراً ، بل كافراً ، ويقولون هذه موهبة وعطية ، يعطيها الله من يشاء ، ما هي متعلقة لا بصلاة ولا بصيام . ويظنون أن تلك من كرامات الأولياء . وتكون كراماتهم من الأحوال الشيطانية التي يكون مثلها للسحرة والسكهان . قال الله تعالى : ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم . نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم ، كأنهم لا يعلمون . واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان . وما كفر سليمان . ولكن الشياطين كفروا . يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ﴾ (١) .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لتنبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » .

وللمسلمون الذين جاءهم كتاب الله القرآن : عدل كثير منهم - ممن أضله

الشیطان من المنسبین إلى الإسلام - إلى نبذ كتاب الله وراء ظهره ،
واتبع ما تتلوه الشیاطین فلا یعظم أمر القرآن ولا نهیه ، ولا یوالی من أمر
القرآن بموالاته ، ولا یعادی من أمر القرآن بمعاداته ؛ بل یعظم من رآه
یأتی ببعض خوارقهم ، التي یأتی بمثلها السحرة والكهان . بإعانة الشیاطین ،
وهی تحصل بما تتلوه الشیاطین .

ثم منهم من یعرف : أن هذا من الشیاطین ، ولكن یعظم ذلك لهواه ،
ویفضله على طریق القرآن لیصل به إلى تقدیس العامة ، وهؤلاء كفار ، كالذین
قال الله تعالى فیهم : ﴿ ألم تر إلى الذین أوتوا نصیباً من الكتاب ؟ یؤمنون
بالجبت والطاغوت ، ویقولون للذین كفروا : هؤلاء أهدى من الذین آمنوا
سبیلاً ، أولئك الذین لعنهم الله ، ومن یلعن الله فلن تجد له نصیراً ﴾ (١) .

وهؤلاء ضاهئوا الكفار الذین قال الله تعالى فیهم : ﴿ ولما جاءهم رسول
من عند الله مصدق لما معهم ، نبذ فريق من الذین أوتوا الكتاب كتاب
الله وراء ظهورهم ، كأنهم لا یعلمون . واتبعوا ما تتلوا الشیاطین على ملك
سلیمان ، وما كفر سلیمان ، ولكن الشیاطین كفروا - الآية ﴾ (٢) .

ومنهم : من لا یعرف أن هذا من الشیاطین .

[الشموذة]

٨٣ - وقد یقع فی مثل هذا طوائف من أهل الكلام ، والعلم ، وأهل
العبادة ، والتصوف ، حتی جوزوا عبادة الكواكب ، والأصنام ، لما رأوه

فيها من الأحوال العجيبة ، التي تعينهم عليها الشياطين ، لما يحصل لهم بها من بعض أغراضهم ، من الظلم والفواحش ، فلا يبالون بشر كهم بالله ، ولا كفرهم به وبكتابه ، إذا قالوا ذلك ، ولم يبالوا بتعليم ذلك للناس ، وتعظيمهم لهم ، لرياسة يغالونها . أو مال يغالونه ، وإن كانوا قد علموا أنه الكفر والشرك : عملوه ، ودعوا إليه ، بل حصل عندهم ريب وشك فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو اعتقاد أن الرسول خاطب الجمهور بما لا حقيقة له في الباطن ، لأجل مصلحة الجمهور ، كما يقول ذلك من يقوله من المتفاسفة والملاحدة والباطنية .

وقد دخل في رأى هؤلاء طائفة من هؤلاء وهؤلاء . وهذا مما ضاهتوا به فارس والروم ، وغيرهم ، فإن فارس كانت تعظم الأنوار ، وتسجد للشمس والنار ، والروم كانوا - قبل النصرانية - مشركين ، يعبدون الكواكب والأصنام ، هؤلاء الذين أشبهوا فارس والروم : شر من الذين أشبهوا اليهود والنصارى ، فإن أولئك ضاهتوا أهل الكتب فيما بدّل أو نسخ . وهؤلاء ضاهتوا من لا كتاب له من المجوس والمشرّكين ، فارس والروم ، ومن دخل في ذلك من الهند واليونان .

ومذهب الملاحدة الباطنية : مأخوذ من قول المجوس بالأصلين ، ومن قول فلاسفة اليونان بالعقول والنفوس .

وأصل قول المجوس : يرجع إلى أن تكون الظلمة المضاهية للنور : هو إبليس ، وقول الفلاسفة بالنفوس .

[أصل الشر]

٨٤ - فأصل الشر : عبادة النفس والشيطان ، وجعلهما شريكين للرب ،

وأن يمدلأ به . ونفس الإنسان تفعل الشر بأمر الشيطان . وقد علم النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضى الله عنه أن يقول - إذا أصبح ، وإذا أمسى ، وإذا أخذ مضجعه - : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة . أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » .

وهذا من تمام تحقيق قوله تعالى : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ مع قوله تعالى : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من العاوين ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين ﴾ ^(٢) .

وقد ظهرت دعوى النفس الإلهية فى فرعون . ونحوه ممن ادعى أنه إله مع الله أو من دونه ، وظهرت فيمن ادعى إلهية بشر مع الله كالمسيح وغيره .

[أصل الشرك]

٨٥ - وأصل الشرك فى بنى آدم : كان من الشرك بالبشر الصالحين للعظمين؛ فإنهم لما ماتوا : عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم عبدوهم . فهذا أول شرك كان فى بنى آدم . وكان فى قوم نوح ، فإنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض ، يدعوهم إلى التوحيد ، وينهاهم عن الشرك ، كما قال تعالى : ﴿ وقالوا لا تدرنَّ آلهتكم . ولا تدرنَّ وداً ولا شواعماً ، ولا يغوث ويعوق ونسراً . وقد أضلوا كثيراً ﴾ ^(٣) ، وهذه أسماء قوم صالحين فى قوم

(٢) ص ٨٥ .

(١) المجبر ٤٢

(٣) نوح ٢٣ ، ٢٤ .

نوح ، فلما ماتوا جعلوا الأصنام على صورهم ، ثم ذهبت هذه الأصنام ، لما أغرق الله أهل الأرض ، ثم صارت إلى العرب ، كما ذكر ذلك ابن عباس وغيره ، إن لم تسكن أعيانها ، وإلا فهي نظائرها .

وأما الشرك بالشيطان : فهذا كثير .

فتم لم يؤمن الخلق بأنه « لا إله إلا الله » بمعنى : أنه المعبود المستحق للعبادة دون ماسواه . وأنه يجب أن يعبد ، وأنه أمر أن يعبد ، وأنه لا يعبد إلا بما أحبه مما شرع ، من واجب ومستحب - فلا بد أن يقووا في الشرك وغيره .

فالذين جعلوا الأقوال والأفعال كلها بالنسبة إلى الله سواء ، لا يجب شيئاً دون شيء : فلا فرق عنده بين من يعبد وحده ، لا يشرك به شيئاً ، وبين من يعبد معه آلهة أخرى ، وجعلوا الأمر معلقاً بمشيئة ، ليس معها حكمة ، ولا رحمة ، ولا عدل . ولا فرق فيها بين الحسنات والسيئات : طمعت النفس في نيل ما تريده بدون طاعة الله ورسوله .

[من صفات « الولي » عند الصوفية]

٨٦ - ثم إذا جاوزوا الكرامات لكل من زعم الصلاح . ولم يقيّدوا الصلاح بالعلم الصحيح والإيمان الصادق والتقوى ، بل جعلوا علامة الصلاح هذه الخوارق . وجوزوا الخوارق مطلقاً ، وحكموا في ذلك مكاشفات ، وقالوا أقوالاً منكراً .

فقال بعضهم : إن الولي يعطى قول « كن » وقال بعضهم : إنه لا يتمتع على الولي فعل ممكن ، كما لا يتمتع على الله تعالى فعل محال .

وهذا قاله ابن عربي والذين اتبعوه قالوا : إن المتمتع لذاته مقدور عليه ، ليس عندهم ما يقال : إنه غير مقدور عليه للولي ، حتى ولا الجمع بين الضدين

ولاغير ذلك ، وزاد ابن عربي : أن الولي لا يعزب عن قدرته شيء من الممكنات : والذي لا يعزب عن قدرته شيء من الممكنات : هو الله وحده .

فهذا تصريح منهم : بأن الولي مثل الله ، إن لم يكن هو الله .

وصرح بعضهم : بأنه يعلم كل مايعلمه الله ، ويقدر على كل مايقدر الله عليه .

وادعوا أن هذا كان للنبي ، ثم انتقل إلى الحسن بن علي ، ثم من الحسن إلى ذريته واحداً بعد واحد . حتى انتهى ذلك إلى أبي الحسن الشاذلي ، ثم إلى ابنه .

خاطبني بذلك : من هو من أكابر أصحابهم .

وحدثني الثقة من أعيانهم ، أنهم يقولون : إن محمداً هو الله .

وحدثني بعض الشيوخ ، الذين لهم سلوك وخبرة : أنه كان هو وابن هود في مكة ، فدخلوا الكعبة ، فقال له ابن هود - وأشار إلى وسط الكعبة - هذا مهبط النور الأول . وقال له : لو قال لك صاحب هذا البيت : أريد أن أجعلك إلهاً ، ماذا كنت تقول له ؟ قال : فقف شعري من هذا الكلام وانحنست - أو كما قال .

[دعوى سهل التستري في الولاية]

٨٧ - من الناس من يحكى عن سهل بن عبد الله : أنه لما دخل الزنج البصرة . قيل له في ذلك . فقال : هاه ، إن بيلدكم هذا من سألوا الله أن يزيل الجبال عن أماكنها لأزالتها . ولوسألوه : أن لا يقيم القيامة لما أقامها ، لكنهم يعلمون مواضع رضاه . فلا يسألونه إلا مايجب .

وهذه الحكاية : إما كذب على سهل - وهو الذي نختار أن يكون حقاً - أو تكون غلطاً منه ، فلاحول ولا قوة إلا بالله ، وذلك : أن ما أخبر الله

أن يكون فلا بد أن يكون ، ولوسأله أهل السموات والأرض أن لا يكون لم يحبهم ، مثل إقامة القيامة ، وأن لا يملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين ، وغير ذلك ، بل كل ما علم الله أنه يكون فلا يقبل الله دعاء أحد في أن لا يكون .

لكن الدعاء سبب يقضى الله به ما علم الله أنه سيكون بهذا السبب ، كما يقضى بسائر الأسباب ما علم : أنه سيكون بها .

وقد سأل الله تعالى - من هو أفضل من كل من في البصرة بكثير - ما هو دون هذا فلم يجابوا لما سبق الحكم بخلاف ذلك ، كما سأله إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يغفر لأبيه ، وكما سأله نوح عليه السلام نجاة ابنه . فقيل له : ﴿ يا نوح ، إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح . فلا تسألني ما ليس لك به علم ﴾ (١) .

وأفضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم : قيل له في شأن عمه أبي طالب ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربي ﴾ (٢) وقيل له في المنافقين : ﴿ سواء عليهم استغفرت لهم ، أم لم تستغفر لهم . لن يغفر الله لهم ﴾ (٣) وقد قال تعالى عمومًا : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ؟ ﴾ (٤) وقال : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ (٥) . فمن هذا الذي لوسأل الله ما يشاؤه هو أعطاه إياه ؟!

وسيد الشفعاء محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة أخير : أنه « يسجد تحت العرش ، ويمحمد ربه ، ويثنى عليه ، فيقال له : أي محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعط ، وأشفع تشفع ، قال : فيحد لي حداً ، فأدخلهم الجنة » وقد قال تعالى : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ، إنه لا يحب المعتدين ﴾ (٦) .

(٢) التوبة ١١٣ .

(٤) البقرة ٢٥٥ .

(٦) الأعراف ٥٥ .

(١) هود ٤٦ .

(٣) المنافقون ٦ .

(٥) سبأ ٢٣ .

[الاعتداء في الدعاء]

٨٨ — وأى اعتداء أعظم وأشنع من أن يسأل العبد ربه : أن لا يفعل ما قد أخبر أنه لا بد أن يفعله ، وأن يفعل ما قد أخبر : أنه لا يفعله . وهو سبحانه كما أخبر عن نفسه : « وإذا سألك عبادى عني ؟ فإني قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان » ^(١) وقال : ﴿ وقال ربكم : آدعوني أستجب لكم . إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ ^(٢) .

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مامن داع يدعو الله بدعوة ، ليس فيها ظلم ، ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى خصال ثلاث : إما أن يجعل له دعوته . وإما أن يدخوله من الخير مثلها . وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها » .

فالدعوة التي ليس فيها اعتداء ، يحصل بها المطلوب بها أو مثله ، وهذا غاية الإجابة : فإن المطلوب بعينه قد يكون ممتنعاً أو مفسداً للداعى أو لغيره ، والداعى جاهل ، لا يعلم ما فيه المفسدة عليه ، والرب قريب مجيب ، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، والكريم الرحيم : إذا سئل شيئاً بعينه ، وعلم أنه لا يصلح للعبد إعطاؤه : أعطاه نظيره ، كما يصنع الوالد بولده إذا طلب ما ليس له ، فإنه يعطيه من ماله نظيره . والله المثل الأعلى .

كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم — لما طلبت منه طائفة من عمه أن يوليهم ولاية لا تصلح لهم — فأعطاهم من الخمس ما أغناهم عن ذلك وزوجهم ، كما فعل بالفضل بن عباس ، وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .

وقد روى في الحديث « ليس شيء أكرم على الله من الدعاء » وهذا حق .

فصل

[لا تطلب الحسنات إلا من الله]

٨٩ - ولما كان الأمر كما أخبر الله به في قوله : « وما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » أوجب هذا : أن لا يطلب العبد الحسنات - والحسنات تدخل فيها كل نعمة - إلا من الله ، وأن يعلم أنها من الله وحده ، فيستحق الله عليها الشكر الذي لا يستحقه غيره ، ويعلم أنه لا إله إلا هو ، كما قال تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ ^(١) .

فهذا يوجب على العبد شكره وعجاده وحده . ثم قال : ﴿ وإذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ ^(٢) وهذا إخبار عن حالهم ، والجوار : يتضمن رفع الصوت . والإنسان إنما يجأر إذا مسه الضر ، وأما في حال النعمة : فهو ساكن ، إما شاكراً وإما كفوراً . ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم يشركون ﴾ ^(٣) .

وهذا المعنى قد ذكره الله في غير موضع ، يذم من يشرك به بعد كشف البلاء عنه ، وإسباغ النماء عليه . فيضيف - بعد ذلك - الإنعام إلى غيره ، ويعبد غيره تعالى ، ويجعل المشكور غيره على النعم ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا مس الناس ضرٌّ دعوا ربهم منييين إليه . ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم يشركون ، ليكفروا بما آتيناهم . فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ ^(٤) .

وقال تعالى : ﴿ قل من ينجيكم من البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذا لنكونن من الشاكرين ؟ قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب . ثم أتم تشركون ﴾ ^(٥) ، وقال تعالى : ﴿ وإذا مس الإنسان ضرٌّ دعا ربه منيباً

(١) النحل ٥٣ (٢) النحل ٥٣ ، ٥٤ (٣) الروم ٣٣ ، ٣٤

(٤) الأنعام ٦٣ ، ٦٤

إليه . ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضلّ عن سبيله . قل تتمتع بكفرك قليلا . إنك من أصحاب النار ﴿١﴾ .

وقوله : « نسي ما كان يدعو إليه » أى نسي الضر الذى كان يدعو الله لدفعه إليه ، كما قال فى سورة الأنعام : ﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله ، أو أتosكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؟ بل إياه تدعون ، فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ، وتنسون ما تشركون ﴾ (٢) .

[المشركون عندما تنزل بهم الضراء]

٩٠ — فذم الله سبحانه حزبين . حزباً لا يدعونه فى الضراء ولا يتوبون إليه ، وحزباً يدعونه ويتضرعون إليه ويتوبون إليه ، فإذا كشف الضر عنهم . أعرضوا عنه ، وأشركوا به ما اتخذوهم من الأنداد من دونه .

فهذا الحزب نوعان — كالمعطلة والمشركة — حزب إذا نزل بهم الضر لم يدعو الله ولم يتضرعوا إليه ، ولم يتوبوا إليه ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالآساء والضراء لعلمهم يتضرعون . فلو لا إذا جاءهم بأسنا تضرعوا ؟ ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا الربهم وما يتضرعون ﴾ (٤) . وقال تعالى : ﴿ أولايرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ؟ ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ﴾ (٥) ، وقال تعالى : ﴿ ولذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلمهم يرجعون ﴾ (٦) ، وحزب يتضرعون إليه فى حال الضراء ويتوبون إليه . فإذا كشفها عنهم : أعرضوا عنه ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا مسّ

(٢) الأنعام ٤٠ ، ٤١ .

(١) الزمر ٨ .

(٤) المؤمنون ٧٦ .

(٣) الأنعام ٤٢ ، ٤٣ .

(٦) السجدة ٢١ .

(٥) التوبة ١٢٦ .

الإنسان الضر دعانا لجنبه ، أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مَرَّ ، كأن لم يدعنا إلى ضر مسّه . كذلك ذُيِّنَ للمُسْرِفِينَ ما كانوا يعملون ﴿١﴾ ، وقال تعالى ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ ﴿٢﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ . فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً ﴾ ﴿٣﴾ ، وقال في المشرِّكين ما تقدم : ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَأَلَيْهِ تَجَّارُونَ : ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضَّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ .

[أهل الصبر والشكر]

٩١ - والمدح : هو القسم الثالث ، وهم الذين يدعونه ، ويتوبون إليه ويثبتون على عبادته والتوبة إليه في حال السراء . فيعبدونه ويطيعونه في السراء والضراء . وهم من أهل الصبر والشكر ، كما ذكر ذلك عن أنبيائه عليهم السلام . قال تعالى : ﴿ وَذَا الْبُيُوتِ إِذْ ذُهِبَ مُغَاضِبًا : فَظَنَّ أَنْ لَنْ يَنْقُدَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ : أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجِبْنَا لَهُ ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٤﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ، وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً . ثُمَّ أَنَابَ . وَقَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ ﴿٥﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَطْمِ ، إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ؟ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ . فَفَزِعَ مِنْهُمْ . قَالُوا : لَا تَخَفْ . خَصِمَانِ يَفِي بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكَمْ بَيْنُنَا بِالْحَقِّ ، وَلَا تُشْطِطْ ، وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ . إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعِجَةً . وَلِي نَعِجَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَقَالَ : أَكْفَلْنِيهَا ، وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ، قَالَ : لَقَدْ ظَلَمَكَ

(١) يونس ١٢ . (٢) فصلت ٥١ . (٣) الإسراء ٦٧ .
(٤) الأنبياء ٨٧ ، ٨٨ . (٥) ص ٣٤ ، ٣٥ .

بسؤال نعتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلقاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات - وقليل ما هم - وطن داود أنما فتناء ، فاستغفرو به . وخرّ راكعاً وأتاب . ففقرنا له ذلك . وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴿^(١)﴾ وقال تعالى عن آدم وحواء : ﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما : ألم أنهما عن تلكما الشجرة ؟ وأقل لهما : إن الشيطان لكما عدو مبين ؟ قالوا : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم نغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴿^(٢)﴾ وقال : ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴿^(٣)﴾ .

[تفسير آية « وكأين من نبي قتل »]

٩٢ - وقال تعالى عن المؤمنين الذين قتل نبيهم ﴿ وكأين من نبي قتل ﴾^(٤) معه ربيون كثير فساوهموا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا . والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم ، إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ، وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين ﴿^(٥)﴾ .

وقوله « قتل » أى النبي قتل . هذا أصح القولين .

وقوله « معه ربيون كثير » جملة في موضع الخبر ، صفة للنبي - صفة بعد صفة - أى كم من نبي معه ربيون كثير قتل ، ولم يقتلوا معه ، فإنه كان يكون للمعنى : أنه قتل وهم معه . وللمعنى : أنه كان معه ربيون كثير ، وقتل في الجملة أولئك الربيون ما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا

(٢) الأعراف ٢٢ ، ٢٣ :

(١) ص ٢١ - ٢٥

(٤) قراءة خمس « قاتل » .

(٣) البقرة ٣٧

(٥) آل عمران ١٤٦ - ١٤٨ .

« والريون » الجموع الكثيرة ، وهم الألوف الكثيرة .

وهذا المعنى : هو الذى يناسب سبب النزول ، وهو ما أصابهم يوم أحد ، لما قيل : « إن محمداً قد قتل » وقد قال قبل ذلك « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفإن مات أو قتل : انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين » وهى التى تلاها أبو بكر الصديق رضى الله عنه يوم مات النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال : « من كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حى لا يموت » .

[ما يحدث عند موت النبى]

٩٣ — فإنه عند قتل النبى أو موته تحصل فتنة عظيمة للناس - المؤمنين والكافرين - وتحصل ردة ونفاق ، لضعف قلوب أتباعه لموته وما يلقيه الشيطان فى قلوب الكافرين : إن هذا قد انقضى أمره ، وما بقى يقوم دينه ، وإنه لو كان نبياً لما قتل وغلب . ونحو ذلك . فأخبر الله تعالى : أنه كم من نبى قتل ؟

فإن بنى إسرائيل قتلوا كثيراً من الأنبياء ، والنبى معه ريون كثير أتباع له ، وقد يكون قتله فى غير حرب ولا قتال ، بل يقتل وقد أتبعه ريون كثير فما وهن المؤمنون لما أصابهم بقتله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين . ولكن استغفروا لذنوبهم التى بها تحصل المصائب - فما أصابهم من سيئة فمن أنفسهم - وسألوا الله أن يَغفر لهم ، وأن يثبت أقدامهم فيثبتهم على الإيمان والجهاد لئلا يرتابوا ولا يفتكروا عن الجهاد . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ ^(١) ، وسألوه أن ينصرهم على القوم الكافرين ،

سألوا ربهم ما يفعل لهم في أنفسهم من التثبيت ، وما يعطيهم من عنده من النصر ؛ فإنه هو الناصر وحده ، وما النصر إلا من عند الله ، وكذا أنزل الملائكة عوناً لهم ؛ قال تعالى لما أنزل الملائكة : ﴿ وما جعله الله إلا بشراً ولتطمئن به قلوبكم . وما النصر إلا من عند الله . إن الله عزيز حكيم ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة . والله يحب المحسنين ﴾ (٢) وهذا مبسوط في موضع آخر .

للقصود هنا : أنه لما كانت الحسنة من إحسانه تعالى ، والمصائب من نفس الإنسان - وإن كانت بقضاء الله وقدره - وجب على العبد أن يشكر ربه سبحانه ، وأن يستغفره من ذنوبه ، وأن لا يتوكل إلا عليه وحده ؛ فلا يأتي بالحسنات إلا هو ؛ فأوجب ذلك للعبد : توحيده ، والتوكل عليه وحده . والشكر له وحده ، والاستغفار من الذنوب .

[أدعية الرسول (ص) جامعة لكل أمور التوحيد]

٩٤ - وهذه الأمور كان النبي صلى الله عليه وسلم يجمعها في الصلاة ، كما ثبت عنه في الصحيح : « أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع ، يقول : ربنا ولك الحمد ، ملء السماء وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ؛ أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد » فهذا حمد ، وهو شكر لله تعالى . وبيان أن حمده أحق ما قاله العبد . ثم يقول بعد ذلك : « اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجلد منك الجلد » .

وهذا تحقيق لوحديته : لتوحيد الربوبية . خلقاً ، وقدرأ ، وبداية ،

وهداية . هو المعطى المانع ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، ولتوحيد الإلهية - شرعاً وأمرأ ، ونهياً - وهو أن العباد ، وإن كانوا يعطون ملكاً وعظمة ، وبجنتاً ورياسة في الظاهر أو في الباطن ، كأصحاب للكشافات والتصرفات الخارقة « فلا ينفع ذا الجدم منك الجدم » أى لا ينجيه ولا يخلصه من سؤالك وحسابك حظه وعظمته وغناه .

ولهذا قال : « لا ينفعه منك » ولم يقل : « لا ينفعه عندك » فإنه لو قيل ذلك : أوهم أنه لا يتقرب به إليك ، لكن قد لا يضره . فيقول صاحب الجدم : إذا سلمت من العذاب في الآخرة فما أبالى ، كالذين أوتوا النبوة والملك ، لهم ملك في الدنيا وهم من السعداء ؛ فقد يظن ذو الجدم - الذى لم يعمل بطاعة الله من بعده - أنه كذلك ؛ فقال « ولا ينفع ذا الجدم منك » ضمن « ينفع » معنى « ينجى ويخلص » فبين أن جده لا ينجيه من العذاب ؛ بل يستحق بذنوبه ما يستحقه أمثاله . ولا ينفعه جده منك ، فلا ينجيه ولا يخلصه .

[معنى « لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت »]

٩٥ - فنضمن هذا الكلام تحقيق التوحيد ، وتحقيق قوله : « إياك نعبد وإياك نستعين » وقوله : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ (١) وقوله ﴿ عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ (٢) وقوله : ﴿ واذا كرأسم ربك وتبتل إليه تبتيلا . رب المشرق والمغرب ، لا إله إلا هو فاتخذة وكيلا ﴾ (٣) .

فقوله : « لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت » توحيد الربوبية الذى يقتضى : أنه سبحانه : هو الذى يسأل ويدعى ، ويتوكل عليه .

وهو سبب لتوحيد الإلهية ، ودليل عليه ، كما يحتاج به في القرآن على المشركين .

فإن المشركين كانوا يقولون بهذا التوحيد - توحيد الربوبية - ومع هذا
يشركون بالله . فيجعلون له أنداداً ، يحبونهم كحب الله . ويقولون : إنهم
شفعاؤنا عنده ، وإنهم يتقربون بهم إليه . فيتخذونهم شفعاء وقرباناً ، كما قال
تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم . ويقولون : هؤلاء
شفعاؤنا عند الله ﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم
إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ ^(٢) وقال تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من
القرى ، وصرّفتنا الآيات لعلمهم يرجعون . فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون
الله قرباناً آلهة ؟ بل ضلوا عنهم ، وذلك إفكهم وما كانوا يترفنون ﴾ ^(٣) .

وهذا التوحيد : هو عبادة الله وحده لا شريك له . وأن لا نعبده إلا
بما أحبه وما رضىه . وهو ما أمر به وشرعه على ألسن رسله - صلوات الله
عليهم - فهو متضمن لطاعته وطاعة رسوله ، وموالاته وأوليائه ، ومعاداة
أعدائه ، وأن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد من كل ما سواهما .

وهو يتضمن : أن يحب الله حباً لا يماثله حب ولا يساويه فيه غيره ، بل
يقتضى : أن يكون رسوله صلى الله عليه وسلم أحب إليه من نفسه .

فإذا كان الرسول - لأجل أنه رسول الله - يجب أن يكون أحب إلى
المؤمن من نفسه ، فكيف بربه سبحانه وتعالى ؟

وفى صحيح البخارى أن عمر قال : « يا رسول الله ، والله إنك لأحب إليّ
من كل شيء ، إلا من نفسى . فقال : لا يا عمر ، حتى أكون أحب إليك
من نفسك . قال : فوالذى بعثك بالحق ، إنك لأحب إليّ من نفسى ، قال :
الآن يا عمر . »

(٢) الزمر ٣ .

(١) يونس ١٨ .

(٣) الأحقاف ٢٧ ، ٢٨ .

وقد قال تعالى : ﴿النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ (١) وقال تعالى :
﴿قل إن كان آباؤكم ، وأبناؤكم ، وإخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم ،
وأموال اقترفتموها ، وتجاوزة تحشون كسادها ، ومساكن ترضونها : أحب
إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره . والله
لا يهدى القوم الفاسقين﴾ (٢) .

فإن لم يكن الله ورسوله ، والجهاد فى سبيله : أحب إلى العبد من الأهل
والمال - على اختلاف أنواعه - فإنه داخل تحت هذا الوعيد .

[توحيد الإلهية]

٩٦ - فهذا التوحيد - توحيد الإلهية - يتضمن فعل المأمور وترك
المحظور .

ومن ذلك : الصبر على المقدور ، كما أن الأول يتضمن الإقرار بأنه
لا خالق ولا رازق ، ولا معطى ولا مانع ، إلا الله وحده . فيقتضى : أن
لا يسأل العبد غيره ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يستعين إلا به . كما قال تعالى
فى النوعين : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وقال ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ (٣) .
وهذا التوحيد : هو الفارق بين اللوحدين والمشركين . وعليه يقع الجزاء
والثواب فى الأولى والآخرة ، فمن لم يأت به كان من المشركين الخالدين ،
فإن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

[توحيد الربوبية]

٩٧ - أما توحيد الربوبية : فقد أقر به المشركون ، وكانوا يعبدون مع

الله غيره ، يحبونهم كما يحبونه : فكان ذلك التوحيد - الذى هو توحيد الربوبية - حجة عليهم ، فإذا كان الله هو رب كل شئ ، ومليكه ، ولا خالق ولا رازق إلا هو . فلماذا يعبدون غيره معه ، وليس له عليهم خلق ولا رزق ، ولا بيده لهم منع ولا عطاء ، بل هو عبد مثلهم لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعا ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ؟ !

فإن قالوا « ليشفع » فقد قال الله : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ ﴾ ^(١) . فلا يشفع من له شفاعته - من الملائكة والنبيين - إلا بإذنه ، وأما قبورهم وما نصب عليهم من قباب وأنصاب ، أو تماثيلهم - التى مثلت على صورهم ، مجسدة أو مرموقة - فجعل الاستشفاع بها استشفاعاً بهم : فهذا باطل عقلاً وشرعاً . فإنها لا شفاعته لها بحال ، ولا لسائر الأصنام التى عملت للكوكب والجن والصالحين ، وغيرهم .

[حقيقة الشفاعته]

٩٨ - وإذا كان الله لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى : فابقى الشفعاء شركاء ، كشفاعة المخلوق عند المخلوق ، فإن المخلوق يشفع عنده نظيره - أو من هو أعلى منه ، أو دونه - بدون إذن المشفوع إليه . ويقبل المشفوع إليه ، ولا بد شفاعته : إما لرغبته إليه ، أو فيما عنده من قوة أو سبب ينفعه به أو يدفع عنه ما يخشاه ، وإما لرهبته منه ، وإما لمحبهته إياه ، وإما للمعارضة بينهما والمعاونة ، وإما لغير ذلك من الأسباب .

وتكون شفاعته الشفيع : هى التى حركت إرادة المشفوع إليه وجملته

مريداً للشفاعة ، بعد أن لم يكن مريداً لها ، كأمر الأمر الذى يؤثر فى
للأمر ، فيفعل ما أمره به بعد أن لم يكن مريداً ليفعله .

وكذلك سؤال المخلوق للمخلوق : فإنه قد يكون محرراً له إلى فعل
ما سأل .

فالشفع : كما أنه شافع للطالب شفاعته فى الطالب ، فهو أيضاً قد شفع
المشفوع إليه : فبشفاعته صار المشفوع إليه فاعلاً المطلوب . فقد شفع الطالب
والمطلوب .

والله تعالى وتر ، لا يشفعه أحد . فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، فالأمر
كله إليه وحده ، فلا شريك له بوجه ، ولهذا ذكر سبحانه نفي ذلك فى آية
الكرسى ، التى فيها تقرير التوحيد . فقال : ﴿ له ما فى السموات وما فى
الأرض . من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ ﴾ (١) .

وسيد الشفعاء صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، إذا سجد وحده ربه ،
يقال له : « ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع . فيجده
حداً . فيدخلهم الجنة » فالأمر كله لله . كما قال : ﴿ قل : إن الأمر كله
لله ﴾ (٢) وقال لرسوله : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ (٣) وقال : ﴿ ألا له
المخلوق والأمر ﴾ (٤) .

فإذا كان لا يشفع عند الله أحداً إلا بإذنه فهو يأذن لمن يشاء ، ولكن
يكرم الشفع بقبول الشفاعة . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث
الصحيح : « اشفعوا تؤجروا ، ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء » .
وإذا دعاه الداعى ، وشفع عنده الشفع . فسمع الدعاء ، وقبل الشفاعة :
لم يكن هذا مؤثراً فيه ، كما يؤثر المخلوق فى المخلوق : فإنه سبحانه هو الذى

(٢) آل عمران ١٥٤ .

(٤) الأعراف ٥٠ .

(١) البقرة ٢٥٥ .

(٣) آل عمران ١٢٨ .

جعل هذا يدعو وهذا يشفع ، وهو الخالق لأفعال العباد ، فهو الذى وفق العبد للتوبة ثم قبلها ، وهو الذى وفقه للعمل ، ثم أثابه عليه ، وهو الذى وفقه للدعاء ، ثم أجابه ، فما يؤثر فيه شيء من الخلوقات ، بل هو سبحانه الذى جعل ما يفعله سبباً لما يفعله .

وهذا مستقيم على أصول أهل السنة المؤمنين بالقدر ، وأن الله خالق كل شيء وأنه ماشاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا يكون شيء إلا بمشيئته ، وهو خالق أفعال العباد ، كما هو خالق سائر الخلوقات . قال يحيى بن سعيد القطان : ما زلت أسمع أصحابنا يقولون : إن الله خالق أفعال العباد .

ولكن هذا يناقض قول القدرية ، فإنهم إذا جعلوا العبد هو الذى يحدث ، ويخلق أفعاله ، بدون مشيئة الله وخلقته : لزمهم أن يكون العبد قد جعل ربه فاعلاً لما لم يكن فاعلاً له ، فبدطائه جعله مجيباً له ، وبتوبته جعله قابلاً للتوبة ، وبشفاعته جعله قابلاً للشفاعة .

[معنى « إذن الله »]

٩٩ — وهذا يشبه قول من جعل الخلق يشفع عند الله بغير إذنه . فإن « الإذن » نوعان . إذن بمعنى المشيئة والخلق ، وإذن بمعنى الإباحة والإجازة .

فمن الأول : قوله فى السحر : ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ ^(١) فإن ذلك بمشيئة الله ، وقدرته ، وإلا فهو لم يبيح السحر .

والقدرية تنسك هذا « الإذن » . وحقيقة قولهم : إن السحر يضر بدون إذن الله . وكذلك قوله : ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فيأذن الله ﴾ ^(٢)

(١) البقرة ١٠٢ .

(٢) آل عمران ١٦٦ .

فإن الذى أصابهم من القتل والجراح ، والتمثيل ، والهزيمة : إذا كان بإذنه فهو خالق لأفعال الكفار ولأفعال المؤمنين .

والنوع الثانى : قوله ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ﴾ ^(٢) فإن هذا يتضمن إباحته لذلك ، وإجازته له ، ورفع الجناح والخرج عن فاعله ، مع كونه بمشيئته وقضائه .

فقوله : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ » هو هذا الإذن السكائن بقدره وشرعه . ولم يرد بمجرد المشيئة والقدر . فإن السحر وانتصار الكفار على المؤمنين كان بذلك الإذن .

فن جعل العباد يفعلون أفعالهم بدون أن يكون الله خالقاً لها ، وقادراً عليها ، ومشيئاً لها ، فعنده : كل شافع وداع قد فعل ما فعل بدون خلق الله وقدرته ، وإن كان قد أباح الشفاعة .

وأما الكفر ، والسحر ، وقتال الكفار : فهو عندهم بغير إذنه ، لا هذا الإذن ولا هذا الإذن ، فإنه لم يبيح ذلك باتفاق المسلمين ، وعندهم : أنه لم يشأه ، ولم يخلقه ، بل كان بدون مشيئته وخلقته .

والمشركون المقرئون بالقدر ، يقولون : إن الشفعاء يشفعون بالإذن القدرى ، وإن لم يأذن لهم لإباحة وجوازاً .

ومن كان مكذباً بالقدر - مثل كثير من النصارى - يقولون : إن شفاعة الشفعاء بغير إذن ، لا قدرى ولا شرعى .

والقدرية من المسلمين يقولون : يشفعون بغير إذن قدرى .

ومن سأل الله بغير إذنه الشرعى : فقد شفع عنده بغير إذن قدرى ولا شرعى .
 فالداعى المأذون له فى الدعاء : مؤثر فى الله عندهم ، ولكن بإباحته .
 والداعى غير المأذون له : إذا أجاب دعاءه ، فقد أثر فيه عندهم ، لا بهذا
 الإذن ولا بهذا الإذن ، كدعاء بلعام بن باعوراء وغيره . والله تعالى يقول :
 « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ » .

فإن قيل : فمن الشفعاء من يشفع بدون إذن الله الشرعى ، وإن كان
 خالقاً لفعله — كشفاعه نوح لابنه ، وشفاعة إبراهيم لأبيه ، وشفاعة النبى
 صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن أبى بن سلول ، حين صلى عليه بعد موته وقوله :
 « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ » قد قلتم : إنه يعم النوعين ، فإنه
 لو أراد الإذن القدرى : لكان كل شفاعة داخلة فى ذلك . كما يدخل فى
 ذلك كل كفر وسحر . ولم يكن فرق بين ما يكون بإذنه ، وما لا يكون
 بإذنه . ولو أراد الإذن الشرعى فقط : لزم قول القدرية ، وهؤلاء قد شفعوا
 بغير إذن شرعى ؟

[الشفاعة المقبولة]

١٠٠ — قيل : المنفى من الشفاعة بلا إذن : هى الشفاعة التامة ، وهى
 المقبولة ، كما فى قول المصطفى « سمع الله لمن حده » أى استجاب له : وكما فى قوله
 تعالى : ﴿ هدى للمتقين ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ ^(٢) وقوله :
 ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ ^(٣) ونحو ذلك .

فإذا الهدى ، والإنذار ، والتذكير ، والتعليم . لا بد فيه من قبول المتعلم .
 فإذا تعلم حصل له التعليم المقتض ، وإلا قيل : علمته فلم يتعلم : كما قيل : ﴿ وأما
 نمود : فهدىناه . فاستجبوا أعمى على الهدى ﴾ ^(٤) فكذلك الشفاعة .

فالشفاعة مقصودها قبول المشفوع إليه : وهى الشفاعة التامة . فهذه هى التى لا تكون إلا بإذنه ، وأما إذا شفع شفيع فلم تقبل شفاعته : كانت كقدمها ، وكان على صاحبها التوبة والاستغفار منها ، كما قال نوح : ﴿ رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ، وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ﴾ ^(١) وكانهى الله النبى صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على المنافقين . وقال له : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً . ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله . وماتوا وهم فاسقون ﴾ ^(٢) وقال له : ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم ﴾ ^(٣) ولهذا قال على لسان المشركين : ﴿ فإلنا من شافعين . ولا صديق حميم ﴾ ^(٤) .

فالشفاعة المطلوبة : هى شفاعة المطاع الذى تقبل شفاعته ، وهذه ليست لأحد عند الله إلا بإذنه ، قدراً وشرعاً فلا بد أن يأذن فيها ، ولا بد أن يجعل العبد شافعاً ، فهو الخالق لفعله ، والمبيح له ، كما فى الداعى ، هو الذى أمره بالدعاء ، وهو الذى يجعل الداعى داعياً ، فالأمر كله لله ، خلقاً وأمرأ ، كما قال ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ ^(٥) .

وقد روى فى حديث — ذكره ابن أبى حاتم وغيره — أنه قال : « فمن يشق به ، فليدعه » أى فلم يبق لغيره لاخلق ولا أمر .

[الشفاعة المنفية]

١٠١ — ولما كان المراد بالشفاعة المنفية : هى الشفاعة المطلقة وهى المقصود بالشفاعة وهى المقبولة ، بخلاف المردودة : فإن أحداً لا يريد لها ، لا الشافع ولا المشفوع له ، ولا المشفوع إليه ولو علم الشافع والمشفوع له ، أنها ترد : لم يفعلوها والشفاعة المقبولة : هى النافعة . بين ذلك فى مثل قوله : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عذره

(٣) المنافقون ٦ .

(٢) التوبة ٨٤

(١) هود ٤٧

(٥) الأعراف ٥٤ .

(٤) الشعراء ١٠٠ ، ١٠١ .

إلا لمن أذن له^(١) وقوله . ﴿يومئذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولاً﴾^(٢) فنفى الشفاعة المطلقة ، وبين أن الشفاعة لاتنفع عنده إلا لمن أذن له ، وهو الإذن الشرعى ، بمعنى : أباح له ذلك ، وأجازه . كما قال تعالى : ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا﴾^(٣) وقوله : ﴿لاتدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم﴾^(٤) وقوله : ﴿ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم﴾^(٥) ونحو ذلك . وقوله «إلا لمن أذن له» هو إذن للمشفوع له ، فلا يأذن فى شفاعة مطلقة لأحد ، بل إنما يأذن فى أن يشفعوا لمن أذن لهم فى الشفاعة فيه ، قال تعالى : ﴿يومئذ يتبعون الداعى لاعوج له . وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ، يومئذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولاً﴾^(٦) وفيه قولان .

قيل : إلا شفاعة من أذن له الرحمن .

وقيل : لاتنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ، فهو الذى تنفعه الشفاعة . وهذا هو الذى يذكروه طائفة من المفسرين ، لا يذكرون غيره ، لأنه لم يقل «لاتنفع إلا من أذن له» ولا قال «لاتنفع الشفاعة إلا فيمن أذن له» بل قال : «لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له» فهى لاتنفع ، ولا يفتنع بها ، ولا تكون نافعة إلا للمأذون لهم . كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾^(٧) .

ولا يقال : لاتنفع إلا لشفيع مأذون له ، بل لو أريد هذا ، لقليل : لاتنفع الشفاعة عنده إلا من أذن له . وإنما قال «لمن أذن له» وهو المشفوع له ، الذى تنفعه الشفاعة .

وقوله «حتى إذا فرغ من قلوبهم» لم يعد إلى «الشفعاء» بل عاد إلى

(١) سبأ ٢٣ (٢) طه ١٠٩ . (٣) الحج ٣٩ (٤) الأحزاب ٥٣

(٥) النور ٥٨ (٦) طه ١٠٨ ، ١٠٩ (٧) سبأ ٢٣ .

المذكورين في قوله « وما لهم فيها من شرك . وما له منهم من ظهير » ثم قال « ولا تنفع الشفاعة عنده » ثم بين أن هذا منتفٍ « حتى إذا فرغ عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق » فلا يعلمون ماذا قال ، حتى يفرغ عن قلوبهم فكيف يشفعون بلا إذنه ؟

وهو سبحانه إذا أذن للمشفوع له فقد أذن للشافع . فهذا الإذن هو الإذن المطلق ، بخلاف ما إذا أذن للشافع فقط ، فإنه لا يلزم أن يكون قد أذن للمشفوع له ، إذ قد يأذن له إذناً خاصاً . وهكذا قال غير واحد من المفسرين . قالوا : وهذا يدل على أن الشفاعة لا تنفع إلا المؤمنين ، وكذلك قال السلف في هذه الآية .

قال قتادة في قوله : ﴿ إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا ﴾ (١) قال : كان أهل العلم يقولون : إن المقام المحمود الذي قال الله تعالى عنه : ﴿ عسى أن يعمئك ربك مقاماً محموداً ﴾ (٢) هو شفاعته يوم القيامة . وقوله « إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا » إن الله يُشَفِّعُ المؤمنين بعضهم في بعض .

قال البغوي : « إلا من أذن له الرحمن » أذن الله له أن يشفع له « ورضى له قولا » أى ورضى قوله . قال ابن عباس : يعنى قال « لا إله إلا الله » قال البغوي : فهذا يدل على أنه لا يشفع لغير المؤمن .

وقد ذكروا القولين في قوله تعالى ﴿ ولا ينفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ وقدم طائفة هناك : أن المستثنى هو الشافع ، دون المشفوع له ، بخلاف ما قدموه هنا . منهم البغوي فإنه لم يذكر هنا في الاستثناء إلى المشفوع له . وقال هناك : « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » في الشفاعة ، قاله تكديفاً لهم ، حيث قالوا : ﴿ هؤلاء شفعأونا عند الله ﴾ (٣) قال : ويجوز أن يكون المعنى : إلا لمن أذن له أن يشفع له .

وكذلكذكروا القولين في قوله : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ، إلا من شهد بالحق ﴾ ^(١) . وسنتكلم على هذه الآية إن شاء الله تعالى ، ونبين أن الاستثناء فيها يعم الطائفتين ، وأنه منقطع .

ومعنى هاتين الآيتين مثل معنى تلك الآية . وهو يعم النوعين .

وذلك : أنه سبحانه قال : ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا ﴾ .

« والشفاعة » مصدر شفع شفاعة . والمصدر يضاف إلى الفاعل تارة ، وإلى محل الفعل تارة . ويمثله الذي يسمى لفظة « المفعول به » تارة ، كما يقال : أعجبني دق الثوب ودق القصار . وذلك مثل لفظ « العلم » يضاف تارة إلى العلم ، وتارة إلى المعلوم . فالأول كقوله : ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه ﴾ ^(٢) وقوله : ﴿ أنزله بعلمه ﴾ ^(٣) وقوله : ﴿ إنما أنزل بعلم الله ﴾ ^(٤) ونحو ذلك . والثاني : كقوله : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ ^(٥) فالساعة هنا معلومة ، لا عالة . وقوله حين قال فرعون : ﴿ فما بال القرون الأولى ؟ ﴾ قال موسى : ﴿ علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ ^(٦) ، ومثل هذا كثير .

فالشفاعة مصدر لا بد لها من شافع ومشفوع له .

والشفاعة : تعم شفاعة كل شافع ، وكل شفاعة لمشفوع له .

فإذا قال : ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة ﴾ نفى النوعين : شفاعة الشفعاء ، والشفاعة للذين . فقوله : ﴿ إلا من أذن له الرحمن ﴾ يقناول النوعين :

(٢) البقرة ٢٥٥

(٤) هود ١٤

(٦) طه ٥١ ، ٥٢

(١) الزخرف ٨٦

(٣) النساء ١٦٦

(٥) لقمان ٣٤

من أذن له الرحمن ورضى له قولاً من الشفعاء . ومن أذن له الرحمن ورضى له قولاً من المشفوع له . وهى تنفع المشفوع له ، فتخلصه من العذاب ، وتنفع الشافع ، فتقبل منه ، ويكرم بقبولها ، ويثاب عليه .

والشفاعة يومئذ لا تنفع لا شافعاً ولا مشفوعاً له ﴿ إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ ^(١) ، فهذا الصنف المأذون لهم ، المرضى قولهم : هم الذين تحصل لهم نفع الشفاعة ، وهذا موافق لسائر الآيات .

فإنه تارة يشترط فى الشفاعة إذنه . كقوله : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ ؟ .

وتارة يشترط فيها الشهادة بالحق . كقوله : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ﴾ ، ثم قال : ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ .

وهنا اشترط الأمرين : أن يأذن له الرحمن ، وأن يقول صواباً . والمستثنى يتناول مصدر الفاعل والمفعول ، كما تقول : لا ينفع الزرع إلا فى وقته . فهو يتناول زرع الحارث ، وزرع الأرض ، لكن هنا قال : « إلا من أذن له الرحمن » ولا شفاء مفرغ . فإنه لم يتقدم قبيل هذا من يستثنى منه هذا . وإنما قال : « لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن » فإذا لم يكن فى الكلام حذف ، كان المعنى : لا تنفع الشفاعة إلا هذا النوع ، فإنهم تنفعهم الشفاعة ، ويكون المعنى : أنها تنفع الشافع والمشفوع له .

وإن جعل فيه حذف - تقديره : لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمن - كان المصدر مضافاً إلى النوعين ، كل واحد بحسبه ، يضاف إلى بعضهم لكونه شافعاً ، وإلى بعضهم لكونه مشفوعاً له ، ويكون هذا كقوله :

﴿ولكن البر من آمن بالله﴾^(١) أى من يؤمن . و ﴿مثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق﴾^(٢) أى مثل داعى الذين كفروا كمثل الناقى ، أو مثل الذين كفروا كمثل منعوق به ، أى الذى ينعق به ، والمعنى فى ذلك كله ظاهر معلوم .

فلهذا كان من أفصح الكلام : إيجازه دون الإطناب فيه .

وقوله : ﴿يومئذ لاتنفع الشفاعة﴾ إذا كان من هذا الباب ، لم محتج : أن الشافع تنفعه الشفاعة ، وإن لم يكرمه ، كان الشافع ممن تنفعه الشفاعة . وفى الآية الأخرى « ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » من هؤلاء وهؤلاء .

لكن قد يقال : التقدير : لاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له أن يشفع فيه فيؤذن لغيره أن يشفع فيه فيكون الإذن للطائفتين ، والنفع للمشفوع له ، كأحد الوجهين ، أو ولاتنفع إلا لمن أذن له من هؤلاء وهؤلاء ، فكما أن الإذن للطائفتين ، فالنفع أيضاً للطائفتين . فالشافع ينتفع بالشفاعة ، وقد يكون انتفاعه بها أعظم من انتفاع المشفوع له ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « اشفعوا تؤجروا ، ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء » .

ولهذا كان من أعظم ما يكرم الله به عبده محمداً صلى الله عليه وسلم : هو الشفاعة التى يختص بها ، وهى المقام المحمود الذى يحمد به الأولون والآخرون .

وعلى هذا لا محتاج الآية إلى حذف ، بل يكون معناه : يومئذ لاتنفع الشفاعة لاشافعاً ولا مشفوعاً إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً .

ولذلك جاء فى الصحيح : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يا بنى عبد مناف ، لا أملك لكم من الله من شئ . يا صفيه عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم

لا أملك لك من الله شيء . بإعباس عم رسول الله ، لا أملك لك من الله من شيء . »

وفي الصحيح أيضاً : « لا ألفين أحدكم يأتي يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء أو شاة لها يعار ، أو رقاع تحقق . فيقول : أغثنى ، أغثنى ، فأقول : قد أبلغتكَ ، لا أملك لك من الله من شيء . »

فيعلم من هذا : أن قوله : « ولا يملكون من دونه الشفاعة » و « لا يملكون منه خطاباً » على مقتضاه . وأن قوله في الآية : « لا يملكون منه » كقوله صلى الله عليه وسلم : « لا أملك لكم من الله من شيء » وهو كقول إبراهيم لأبيه ﴿ وما أملك لك من الله من شيء ﴾ ^(١) .

وهذه الآية تشبه قوله تعالى : ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن ، لا يملكون منه خطاباً : يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ ^(٢) فإن هذا مثل قوله : « يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا » ففي الموضعين : اشترط إذنه ، فهناك ذكر « القول الصواب » وهنا ذكر « أن يرضى قوله » ومن قال الصواب رضى الله قوله ، فإن الله إنما يرضى بالصواب .

[الشفاعة لله]

١٠٢ — وقد ذكروا في تلك الآية قولين :

أحدهما : أنه الشفاعة أيضاً ، كما قال ابن السائب : لا يملكون شفاعة إلا بإذنه . والثاني : لا يقدر الخلق على أن يكلموا الرب إلا بإذنه . قال مقاتل : كذلك قال مجاهد « لا يملكون منه خطاباً » قال : كلاماً . هذا من تفسيره الثابت عنه وهو من أعلم — أو أعلم — التابعين بالتفسير .

قال الثوري : إذا جاءك التفسير عن مجاهد ، فحسبك به . وقال : عرضت
 للمسحف علي ابن عباس : ألقه عند كل آية وأسأله عنها . وعليه اعتمد
 الشافعي وأحمد والبخاري في صحيحه .
 وهذا يتناول « الشفاعة » أيضاً .

وفي قوله « لا يملكون منه خطاباً » لم يذكر استثناء . فإن أحداً لا يملك
 من الله خطاباً مطلقاً . إذ الخلق لا يملك شيئاً يشارك فيه الخالق ، بما قد
 ذكرناه في قوله : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » أن هذا عام
 مطلق . فإن أحداً - ممن يدعى من دونه - لا يملك الشفاعة بحال ، ولكن الله
 إذا أذن لهم شفّعوا من غير أن يكون ذلك مملوكاً لهم . وكذلك قوله :
 « لا يملكون منه خطاباً » هذا قول السلف وجمهور المفسرين .

وقال بعضهم : هؤلاء هم الكفار . لا يملكون مخاطبة الله في ذلك اليوم .
 قال ابن عطية : قوله : « لا يملكون » : الضمير للكفار . أي لا يملكون
 - من إفضاله وإكماله - أن يخاطبوه بمعذرة ولا غيرها . وهذا مبتدع . وهو
 خطأ محض .

والصحيح : قول الجمهور والسلف : أن هذا عام ، كما قال في آية أخرى :
 ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن . فلا تسمع إلا همساً ﴾ (١) وفي حديث التجلي
 الذي في الصحيح - لما ذكر مرورهم على الصراط - قال صلى الله عليه وسلم :
 « ولا يتكلم أحد إلا الرسل . ودعوى الرسل . اللهم سلم سلم » فهذا في وقت
 المرور على الصراط . وهو بعد الحساب والميزان . فكيف بما قبل ذلك ؟
 وقد طلبت الشفاعة من أكابر الرسل ، وأولى العزم . وكل يقول : « إن

ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله . ولن يغضب بعده مثله . وإني فعلت كذا وكذا . نفسى ، نفسى ، نفسى « فإذا كان هؤلاء لا يتقدمون إلى مخاطبة الله تعالى بالشفاعة فكيف بغيرهم ؟

وأيضاً فإن هذه الآية مذكورة بعد ذكر المتقين وأهل الجنة ، وبعد أن ذكر الكافرين فقال : ﴿ إن المتقين مفاضاً . حدائق وأعناباً . وكواعباً تراباً ، وكأساً دهاقاً . لا يسمعون فيها لغواً ولا كيداً أباً . جزاء من ربك عطاء حساباً . رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً ﴾ (١) . ثم قال : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً . لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال : صواباً ﴾ . فقال أخبر : أن « الروح والملائكة » يقومون صفاً ، لا يتكلمون . وهذا هو تحقيق قوله « لا يملكون منه خطاباً » والعرب تقول « ما أملك من أمر فلان أو من فلان شيئاً » (٢) . أى لا أقدر من أموره على شيء . وغاية ما يقدر عليه الإنسان من أمر غيره : خطابه ولو بالسؤال .

فهم في ذلك الموطن لا يملكون من الله شيئاً ، ولا الخطاب . فإنه لا يتكلم أحد إلا بإذنه . ولا يتكلم إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً . قال تعالى : ﴿ إنا نقول إبراهيم لأبيه : لأستغفرن لك . وما أملك لك من الله من شيء ﴾ (٢) فقد أخبر الخليل : أنه لا يملك لأبيه من الله من شيء . فكيف غيره ؟ .

وقال مجاهد أيضاً « إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » قال : حقاً الدنيا وعملها به . رواه - والذي قبله - عبد بن حميد . وروى عن عكرمة : « وقال صواباً » قال : الصواب قول : لا إله إلا الله .

(١) النبأ ٢١ - ٢٧ .

(٢) المتحنة ٤ .

فعلى قول مجاهد : يكون المستثنى : من أتى بالكلم الطيب والعمل الصالح .

وقوله فى سورة طه : ﴿ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له فولا ﴾ ، فإذا جعلت هذه مثل تلك : فتكون الشفاعة هى الشفاعة المطلقة . وهى الشفاعة فى الحسنات ودخول الجنة ، كما فى الصحيحين : « أن الناس يهتمون يوم القيامة . فيقولون : لو استشفعنا على ربنا ، حتى يرحمنا من مقامنا هذا ؟ » فهذا طلب الشفاعة للفصل بينهم .

وفى حديث الشفاعة « أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن » فهذه شفاعة أهل الجنة . ولهذا قيل : إن هاتين الشفاعتين مختصتان بتحمد صلى الله عليه وسلم ، ويشفع غيره فى العصاة .

فقوله : « يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له فولا » يدخل فيه الشفاعة فى أهل الموقف عموماً ، وفى أهل الجنة ، وفى المستحقين للعذاب . وهو سبحانه فى هذه وتلك : لم يذكر العمل . إنما قال : « وقال صواباً » وقال : « ورضى له فولا » لكن قد دل الدليل على أن « القول الصواب المرضي » لا يكون صاحبه محموداً إلا مع العمل الصالح ؛ لكن نفس القول مرضى . فقد قال الله : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ ^(١) .

وذكر البغوى وأبو الفرج ابن الجوزى وغيرهما فى قوله : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ قولين . أحدهما : أن المستثنى هو الشافع : وحل « من » الرفع . والثانى : هو المشفوع له .

قال أبو الفرج : فى معنى الآية قولان : أحدهما : أنه أراد بـ « الذين

يدعون من دونه « آلهتهم . ثم استغنى عيسى وعزيراً والملائكة . فقال : « إلا من شهد بالحق » وهو شهادة أن لا إله إلا الله « وهم يعلمون » بقلوبهم ماشهدوا به بألسنتهم . قال : وهذا مذهب الأكثرين ، منهم قتادة .

والثاني : أن المراد بـ « بالذين يدعون » عيسى وعزيراً والملائكة ، الذين عبدوا المشركون ، لا يملك هؤلاء الشفاعة لأحد « إلا من شهد بالحق » وهى كلمة الإخلاص « وهم يعلمون » أن الله خلق عيسى وعزيراً والملائكة . وهذا مذهب قوم ، منهم مجاهد .

وقال البغوى : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق » هم عيسى وعزير والملائكة ، فإنهم عبدوا من دون الله . ولم الشفاعة وعلى هذا تكون « من » فى محل رفع . وقيل « من » فى محل خفض ، وأراد بالذين يدعون : عيسى وعزيراً والملائكة ، يعنى أنهم لا يملكون الشفاعة إلا لمن شهد بالحق قال : والأول أصح .

قلت : قد ذكر جماعة قول مجاهد و قتادة ، منهم ابن أبى حاتم . روى بإسناده المعروف عن مجاهد — على شرط الصحيح — عن مجاهد قوله : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » عيسى وعزيراً والملائكة ، يقول : لا يشفع عيسى وعزير والملائكة « إلا من شهد بالحق » يعلم الحق . هذا لفظه . جعل « شفيع » متعدياً بنفسه وكذلك لفظ (١) .

وعلى هذا فيكون منصوباً ، لا يكون مخفوضاً ، كما قاله البغوى . فإن الحرف الخافض إذا حذف انتصب الاسم . ويكون على هذا يقال : شفيعته ، وشفعت له ، كما يقال : نصحت له ، ونصحت له . « شفيع » أى صار شفيعاً للطالب . أى لا يشفعون طالباً ولا يعيرون طالباً « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » أن الله ربهم .

(١) يابى بالأصل قدر أربع كلمات .

وروى بإسناده عن قتادة : « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » الملائكة وعيسى وعزير ؛ أى أنهم قد عبدوا من دون الله ، ولهم شفاعه عند الله ومنزلة .

قلت : كلا القولين معناه صحيح . ولكن التحقيق في تفسير الآية : أن الاستثناء منقطع . ولا يملك أحد من دون الله الشفاعه مطلقاً : لا يستثنى من ذلك أحد عند الله . فإنه لم يقل : ولا يشفع أحد ، ولا قال : لا يشفع لأحد ، بل قال : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعه » وكل من دُعِيَ من دون الله لا يملك الشفاعه ألبته .

والشفاعة بإذن ليست مختصة بمن عبد من دون الله .

وسيد الشفاء صلى الله عليه وسلم لم يعبد كما عبد المسيح ، وهو - مع هذا - له شفاعه ، ليست لغيره ، فلا يحسن أن تثبت الشفاعه لمن دعى من دون الله دون من لم يدع .

فن جعل الاستثناء متصلاً ، فإن معنى كلامه : أن من دعى من دون الله لا يملك الشفاعه ، إلا أن يشهد بالحق ، وهو يعلم ، أو لا يشفع إلا لمن شهد بالحق وهو يعلم ، ويبقى الذين لم يدعوا من دون الله ، لم تذكر شفاعتهم لأحد . وهذا المعنى لا يليق بالقرآن ولا يناسبه ، وسبب نزول الآية يبطله أيضاً .

[معنى : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعه »]

١٠٣ — وأيضاً قوله : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعه » يتناول كل معبود من دونه . ويدخل في ذلك الأصنام ، فإنهم كانوا يقولون : هم يشفعون لنا . قال تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم -

ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ؟ قل : أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ؟ ﴿١﴾ .

فإذا قيل : إنه استثنى الملائكة والأنبياء ، كان في هذا إطماع لمن عندهم أن معبوديهم من دون الله يشفعون لهم ، وهذا مما يبين فساد القول المذكور عن قتادة .

فإنه إذا كان المعنى : أن المعبودين لا يشفعون إلا إذا كانوا ملائكة أو أنبياء . كان في هذا إثبات شفاعاة المعبودين لمن عبدوهم ، إذا كانوا صالحين ، والقرآن كله يبطل هذا المعنى . ولهذا قال تعالى : ﴿وكم من ملك في السموات لا تنفى شفاعتهم شيئاً﴾ . إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴿٢﴾ وقال تعالى : ﴿وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً . سبحانه ؟ بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى . وهم من خشيته مشفقون﴾ ﴿٣﴾ فبين أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الرب ، فلم : أنه لا بد أن يؤذن لهم فيمن يشفعون فيه ، وأنهم لا يؤذن لهم لإذن مطلق .

وأيضاً فإن في القرآن : إذا نفى الشفاعاة من دونه : نفاه مطلقاً ، فإن قوله « من دونه » إما أن يكون متصلاً بقوله « يملكون » أو بقوله « يدعون » أو بهما . فالتقدير : لا يملك الذين يدعونهم الشفاعاة من دونه . أو لا يملك الذين يدعونهم من دونه أن يشفعوا ، وهذا أظهر ، لأنه قال « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعاة » فأخر « الشفاعاة » وقدم « من دونه » .

ومثل هذا كثير في القرآن « يدعون من دون الله » و « يعبدون من دون

الله « كقوله : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ ولا تدع من دون الله مالا ينفك ولا يضرك ﴾ ^(٢) .

بمخلاف ما إذا قيل : لا يملك الذين يدعون الشفاعة من دونه . فإن هذا لا نظير له في القرآن ، واللفظ المستعمل في هذا أن يقال : لا يملك الذين يدعون الشفاعة إلا بإذنه ، أو لمن ارتضى ، ونحو ذلك ، لا يقال في هذا المعنى « من دونه » فإن الشفاعة هي من عنده ، فكيف تكون من دونه ؟ لكن قد تكون بإذنه ، وقد تكون بغير إذنه .

وأيضاً ، فإذا قيل « الذين يدعون » مطلقاً . دخل فيه الرب تعالى : فإنهم كانوا يدعون الله ، ويدعون معه غيره ، ولهذا قال : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ﴾ ^(٣)

والتقدير الثالث : لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة من دونه ، وهذا أجود من الذى قبله ، ولكن يرد عليه ما يرد على الأول .

[من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟]

١٠٤ — ومما يضعفهما : أن « الشفاعة » لم تذكر بعدها صلة لها ، بل قال « لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » فنفى ملكهم الشفاعة مطلقاً . وهذا هو الصواب ، وأن كل من دعى من دون الله : لا يملك الشفاعة ، فإن المالك للشيء : هو الذى يتصرف فيه بمشيئته وقدرته ، والرب تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، فلا يملك أحد من المخلوقين الشفاعة بحال . ولا يقال في هذا « إلا بإذنه » إنما يقال ذلك في الفعل ، فيقال : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ ﴾ .

وأما في الملك : فلا يمكن أن يكون غيره مالكا لها ؛ فلا يملك مخلوق الشفاعة بحال ، ولا يتصور أن يكون نبي فن دونه مالكا لها ، بل هذا ممتنع ، كما يمتنع أن يكون خالقا وربا ، هذا كما قال : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، وما لهم فيها من شرك ، وما له منهم من ظهير ﴾ ^(١) فنفي الملك مطلقا ، ثم قال : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ فنفي نفع الشفاعة إلا لمن استثناه . لم يثبت ، أن مخلوقا يملك الشفاعة ، بل هو سبحانه له الملك وله الحمد . لا شريك له في الملك ، قال تعالى : ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ، الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا . ولم يكن له شريك في الملك ، وخلق كل شيء قهرا تقديره تقديرا ﴾ ^(٢) .

ولهذا — لما نفى الشفعاء من دونه — نفاهم نفيا . مطلقا بغير استثناء . وإلما يقع الاستثناء : إذ لم يقيدهم بأنهم من دونه . كما قال تعالى ، ﴿ وأنبأ به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ، ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع ﴾ ^(٣) وكما قال تعالى ﴿ وذكركم به أن تبسل نفس بما كسبت . ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع ﴾ ^(٤) وكما قال تعالى ﴿ ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع ﴾ ^(٥) فلما قال « من دونه » نفى الشفاعة مطلقا . وإذ ذكر « بإذنه » لم يقل « من دونه » كقوله ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ؟ ﴾ وقوله ، ﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ ^(٦) .

[القرآن : متشابه ومثاني]

١٠٥ — فن تدبر القرآن ، تبين له أنه كما قال تعالى ﴿ الله نزل أحسن

(١) الأنعام ٥١ .

(٢) الفرقان ١ ، ٢ .

(٣) سبأ ٢٢ .

(٤) يونس ٣ .

(٥) السجدة ٤ .

(٦) الأنعام ٧٠ .

الحديث كتاباً متشابهاً ، مثنى ^(١) يشبه بعضه بعضاً ، ويصلق بعضه بعضاً .
ليس بمختلف ولا بمتناقض ^(٢) ولو كان من عند غير الله : لوجدوا فيه اختلافاً
كثيراً ^(٣) .

وهو « مثنى » يثنى الله فيه الأقسام ، ويستوفيها .

والحقائق : إما متماثلة ، وهو « المتشابه » وإما مماثلة . وهى : الأصناف
والأقسام والأنواع . وهى « المثنى » .

و « التثنية » يراد بها : جنس التعديد ، من غير اقتصار على اثنين
فقط . كما فى قوله تعالى : ﴿ ارجع البصر كرتين ﴾ ^(٤) يراد به : مطلق العدد
كما تقول : قلت له مرة بعد مرة . تريد جنس العدد . وتقول : هو يقول
كذا ، ويقول كذا : وإن كان قد قال مرات ، كقول حذيفة بن اليمان
رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه : « جعل يقول بين السجدين :
رب اغفرلى . رب اغفرلى » لم يرد : أن هذا قاله . مرتين فقط ، كما يظنه
بعض الناس الغالطين . بل يريد : أنه جعل يثنى هذا القول ، ويعده ،
ويكرره ، كما كان يثنى لفظ التسييح .

وقد قال حذيفة رضى الله عنه فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم :
« إنه كعم نحواً من قيامه ، يقول فى ركوعه : سبحان ربى العظيم ، سبحان
ربى العظيم » وذكر : « أنه سجد نحواً من قيامه ، ويقول فى سجوده : رب
اغفرلى . رب اغفرلى » .

وقد صرح فى الحديث الصحيح : « أنه أطال الركوع والسجود بقدر
البقرة والنساء وآل عمران » فإنه قام بهذه السور كلها . وذكر « أنه كان

يقول : سبحان ربى العظيم ، سبحان ربى العظيم . سبحان ربى الأعلى ، سبحان ربى الأعلى .

فعلم أنه أراد بثنية اللفظ : جنس التعداد والتكرار ، والاختصار على روتين . فإن « الاثنين » أول العدد الكثير . فذكر أول الأعداد ، يعنى أنه عدد هذا اللفظ لم يقتصر على مرة واحدة . فالثنية التعديد ، والتعديد يكون للأقسام المختلفة .

وليس فى القرآن تكرار محض ، بل لابد من فوائد فى كل خطاب . فـ « المتشابه » فى النظائر المتماثلة . و « الثانى » فى الأنواع ، وتكون الثنية فى التشابه ، أى هذا المعنى قد ثنى فى القرآن لفوائد آخر . فـ « الثانى » تعمُّ هذا وهذا . وفاتحة الكتاب : هى « السبع الثانى » لتضمنها هذا وهذا . وبسط هذا له موضع آخر .

[الشفاعة لأهل : لا إله إلا الله]

١٠٦ — والمقصود هنا : أن قوله « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » قد تم الكلام هنا . فلا يملك أحد من المعبودين من دون الله الشفاعة ألبتة : ثم استثنى « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » فهذا استثناء منقطع . والمنقطع يكون بالمعنى المشترك بين المذكورين . فلما فنى ملكهم الشفاعة ، وبقيت الشفاعة بلا مالك لها .

كأنه قد قيل : فإذا لم يملكوها ، هل يشفعون فى أحد؟ فقال : نعم ، « من شهد بالحق وهم يعلمون » .

وهذا يتناول الشافع والمشفوع له . فلا يشفع إلا من شهد بالحق وهم يعلمون . فالملائكة والأنبياء والصالحون - وإن كانوا لا يملكون الشفاعة - لكن إذا أذن الرب لهم شفّعوا . وهم لا يؤذن لهم فى الشفاعة للمؤمنين ، الذين يشهدون أن لا إله إلا الله : فيشهدون بالحق وهم يعلمون . لا يشفعون لمن قال هذه الكلمة تقليداً للآباء والسيوخ . كما جاء الحديث الصحيح : أن الرجل

يسأل في قبره « ما تقول في هذا الرجل ؟ فأما المؤمن ، فيقول : هو عبد الله ورسوله . جاءنا بالبينات والهدى . وأما المرتاب ، فيقول : هاهاه ، لأدرى . سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته » فلماذا قال : « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » . وقد تقدم قول ابن عباس : يعنى من قال « لا إله إلا الله » يعنى : خالصاً من قلبه . والأحاديث الصحيحة الواردة في الشفاعة كلها تبين : أن الشفاعة إنما تكون في أهل « لا إله إلا الله » .

وقد ثبت في صحيح البخارى : أن أبا هريرة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : يا أبا هريرة ، لقد ظننت أن لا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث . أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة : من قال : « لا إله إلا الله » خالصاً من قبل نفسه » .

فبيّن أن المخلص لها من قبل نفسه : هو أسعد بشفاعته صلى الله عليه وسلم من غيره ممن يقولها بلسانه ، وتكذبها أقواله وأعماله .

فهؤلاء هم الذين شهدوا بالحق ، شهدوا « أن لا إله إلا الله » كما شهد الله لنفسه بذلك وملائكته وأولوا العلم : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولوا العلم ، قائماً بالقسط : لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ (١) .

فإذا شهدوا - وهم يعلمون - كانوا من أهل الشفاعة ، شافعين ، ومشفوعاً لهم ، فإن المؤمنين أهل التوحيد يشفع بعضهم في بعض ، كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة . كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال - في الحديث الطويل ، حديث التجرى والشفاعة : « حتى إذا خلص المؤمنين من النار : فوالذى نفسى بيده ، ما منكم من أحد أبشد مناشدة الله في استيفاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة

لإخوانهم الذين فى النار . يقولون : ربنا ، كانوا يصومون معنا ، ويصلون ، ويحجون . فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم . فتحوم صورهم على النار — وذكر تمام الحديث .

وسبب نزول الآية — على ما ذكره — مؤيد لما ذكره .

قال أبو الفرج ابن الجوزى . سبب نزولها : أن النضر بن الحرث ونفراً معه قالوا : « إن كان ما يقول محمد حقاً . فنحن نتولى الملائكة ، فهم أحق بالشفاعة من محمد ؛ فنزلت هذه الآية » قاله مقاتل .

وعلى هذا : فيقصد أن الملائكة وغيرهم لا يملكون الشفاعة ، فليس توليكم إياهم ، واستشفاعكم بهم : بالذى يوجب أن يشفعوا لكم . فإن أحداً ممن يدعى من دون الله لا يملك الشفاعة . ولكن : « من شهد بالحق وهم يعلمون » فإن الله يشفع فيه .

فالذى تنال به الشفاعة . هى الشهادة بالحق ، وهى شهادة أن لا إله إلا الله ، لا تنال بتولى غير الله ، لا الملائكة ، ولا الأنبياء ، ولا الصالحين .

[من تشفع بنير الله]

١٠٧ — فمن والى أحد من هؤلاء ودعاه ، وحجج إلى قبره ، أو موضعه ، ونذر له ، وحلف به ، وقرب له القرابين ليشفع له : لم يغن ذلك عنه من الله شيئاً . وكان من أبعد الناس عن شفاعته وشفاعة غيره . فإن الشفاعة إنما تكون : لأهل توحيد الله ، وإخلاص القلب والدين له . ومن تولى أحداً من دون الله فهو مشرك .

فهذا القول والعبادة الذى يقصد به المشركون الشفاعة : يحرم عليهم الشفاعة . فالذين عبدوا الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين — ليشفعوا لهم — كانت عبادتهم إياهم وإشراكهم بربهم ، الذى به طابوا شفاعتهم به ، حرروا شفاعتهم ، وعوقبوا بنقيض قصدهم ، لأنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً .

وكثير من أهل الضلال: يظن أن الشفاعة تنال بهذه الأمور التي فيها شرك أو هي شرك خالص، كما ظن المشركون الأولون، وكما يظنه النصارى، ومن ضل من المفتسين إلى الإسلام. الذين يدعون غير الله، ويحجون إلى قبره أو مكانه، وينذرون له، ويحلفون به. ويظنون: أنه بهذا يصير شفيعاً لهم. قال تعالى: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه. فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً. أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته، ويخافون عذابه، إن عذاب ربك كان محذوراً﴾ (١).

قال طائفة من السلف: كان أقوام يعبدون المسيح والعزير والملائكة فيبين الله أنهم لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويله. كما بين أنهم لا يملكون الشفاعة وهذه لا استثناء فيه، وإن كان الله يحيب دعاءهم، ثم قال: «أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً» فيبين: أن هؤلاء المزعومين الذين يدعونهم من دون الله كانوا يرجون رحمة الله ويخافون عذابه ويتقربون إليه بالأعمال الصالحة، كسائر عباده المؤمنين. وقد قال تعالى: ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً. أيا أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون؟﴾ (٢).

[ضلال الناس في الشفاعة]

١٠٨ — وللناس في الشفاعة أنواع من الضلال، قد بسطت في غير هذا الموضع.

فكثير منهم: يظن أن الشفاعة هي بسبب اتصال روح الشافع بروح المشفوع له، كما ذكر ذلك أبو حامد الغزالي وغيره. ويقولون: من أكثر صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كان أحق بالشفاعة من غيره. وكذلك من كان أحسن ظناً بشخص وأكبر تعظيماً له: كان أحق بشفاعته.

وهذا غلط ، بل هذا هو قول المشركين الذين قالوا : نتولى الملائكة ليشفعوا لنا . يظنون أن من أحب أحداً من الملائكة والأنبياء والصالحين . وتولاه — كان ذلك سبباً لشفاعته له . وليس الأمر كذلك .

بل الشفاعة سببها توحيد الله وإخلاص الدين والعبادة بجميع أنواعها له . فكل من كان أعظم إخلاصاً كان أحق بالشفاعة ، كما أنه أحق بسائر أنواع الرحمة ، فإن الشفاعة من الله مبدؤها ، وعلى الله تمامها . فلا يشفع أحد إلا بإذنه ، وهو الذى يأذن للشافع . وهو الذى يقبل شفاعته فى المشفوع له .

[الشفاعة سبب من سباب الرحمة]

١٠٩ — إنما الشفاعة سبب من الأسباب التى بها يرحم الله من يرحم من عباده ، وأحق الناس برحمته : هم أهل التوحيد والإخلاص له ، فكل من كان أكمل فى تحقيق إخلاص « لا إله إلا الله » علماً وعقيدة ، وعملاً وبراءة ، وموالاة ومعاداة : كان أحق بالرحمة .

والمذنبون — الذين رجحت سيئاتهم على حسناتهم ، تخفت موازينهم ، فاستحقوا النار — من كان منهم من أهل « لا إله إلا الله » فإن النار تصيبه بذنوبه ، ويميته الله فى النار لمائة . فتحرقه النار بالإموضع السجود ، ثم يخرج به الله من النار بالشفاعة ويدخله الجنة ، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة . فبين أن مدار الأمور كله . على تحقيق كلمة الإخلاص ، وهى « لا إله إلا الله » لا على الشرك بالتعلق بالموتى وعبادتهم ، كما ظنه الجاهلون .

وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يجمع بين « الحمد » الذى هو رأس الشكر وبين « التوحيد والاستغفار » إذا رفع رأسه من الركوع فيقول : « ربنا ولك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد . أحق ما قال العبد — كلنا لك عبد — لا مانع

لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » ثم يقول :
« اللهم طهرني بالثلج والبرد ، والماء البارد . اللهم طهرني من الذنوب والخطايا
كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس » كما رواه مسلم في الصحيح عن أبي سعيد
الخلدي رضي الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه
من الركوع قال : اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات وملء الأرض وملء
ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد . وكلنا لك عبد .
لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

وروى مسلم أيضاً عن عهد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال : « كان
رسول الله صلى الله عليه وسلم — إذا رفع رأسه من الركوع — قال : سمع الله
لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض وملء ما شئت
من شيء بعد . اللهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد . اللهم طهرني من
الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الوسخ » .

وقد روى مسلم في صحيحه أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول :
« اللهم لك الحمد » وقال : « وملء الأرض وملء ما بينهما » .

ولم يذكر في بعض الروايات . لأن « السموات والأرض » قد يراد بهما :
العلو والسفل مطلقاً ، فيدخل في ذلك الهواء وغيره ، فإنه عال بالنسبة إلى ما تحته ،
وصافل بالنسبة إلى ما فوقه ، فقد يجعل من السماء ، كما يجعل السحاب سماء ،
والسقف سماء ، وكذا قال في القرآن : ﴿ هو الذي خلق السموات والأرض في
ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ ^(١) ، ولم يقل « وما بينهما » كما يقول : ﴿ الله
الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش
مالكم من دونه من ولي ولا شفيع ﴾ ^(٢) .

فتارة يذكرك قوله « وما بينهما » فيما خلقه في ستة أيام ، وتارة لا يذكرك . وهو مراد ، فإن ذكره كان إيضاحاً وبياناً ، وإن لم يذكرك دخل في لفظ « السموات والأرض » لهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم تارة يقول : « ملء السموات وملء الأرض » ولا يقول « وما بينهما » وتارة يقول « وما بينهما » وفيها كلها « وملء ماشئت من شيء بعد » وفي رواية أبي سعيد « أحق ما قال العبد » إلى آخره . وفي رواية ابن أبي أوفى « الدعاء بالطهارة من الذنوب » .

[الحمد : رأس الشكر والاستغفار]

١١٠ — ففي هذا الحمد رأس الشكر والاستغفار . فإن ربنا غفور مشكور . فالحمد : بإزاء النعمة ، والاستغفار : بإزاء الذنوب .

وذلك تصديق قوله تعالى : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ (١) .

ففي سيد الاستغفار : « أبوء لك بنعمتك عليّ ، وأبوء بذنبي » وفي حديث أبي سعيد « الحمد رأس الشكر ، والتوحيد » كما جمع بينهما في أم القرآن ، فأولها : تحميد ، وأوسطها : توحيد ، وآخرها دعاء . وكما في قوله : ﴿ هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين ﴾ (٢) .

وفي حديث الموطأ : « أفضل ما قلت ، أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير . من قالها كتب الله له ألف حسنة ، وحُط عنه ألف سيئة ، وكانت له حوزاً من الشيطان يومه ذلك ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل قال مثلها ، أو زاد عليه ، ومن قال في يوم مائة مرة : سبحان الله وبحمده ، حُطَّت خطاياه ، ولو كان مثل زبد البحر » .

[فضائل وأدعية]

١١١ — فضائل هذه الكلمات في أحاديث كثيرة . وفيها : التوحيد

والتحميد .

فقوله : « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له » توحيد . وقوله « له الملك وله الحمد » تحميد . وفيها معان أخرى شريفة .

وقد جاء الجمع بين التوحيد ، والتحميد ، والاستغفار ، في مواضع : مثل حديث كفارة المجلس : « سبحانك اللهم وبحمدك . أشهد أن لا إله إلا أنت . أستغفرك وأتوب إليك » فيه : التسبيح ، والتحميد ، والتوحيد ، والاستغفار . من قالها في مجلس ، إن كان مجلس لفظ ، كانت كفارة له ، وإن كان مجلس ذكر : كانت كالطابع له . وفي حديث أيضاً : « إن هذا يقال عقب الوضوء » .

ففي الحديث الصحيح في مسلم وغيره من حديث عقبة عن عمرو بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد يتوضأ فيسمع الوضوء ، ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء » وفي حديث آخر أنه يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » .

وقد روى عن طائفة من السلف ، في الكلمات التي تلقاها آدم من ربه ، نحو هذه الكلمات .

روى ابن جرير عن مجاهد أنه قال : « اللهم لا إله إلا أنت ، سبحانك وبحمدك . رب إني ظلمت نفسي ، فاغفر لي ، إنك خير الغافرين » « اللهم لا إله إلا أنت . سبحانك وبحمدك . رب إني ظلمت نفسي فارحني ، فأنت

خير الراحمين » « لا إله إلا أنت . سبحانه وبحمده . رب إني ظلمت .
نفسى فتنب على ، إنك أنت التواب الرحيم » .

فهذه الكلمات من جنس خاتمة الوضوء . وخاتمة الوضوء : فيها التسبيح ،
والتحميد ، والتوحيد ، والاستغفار .

فالتسبيح ، والتحميد ، والتوحيد لله ، فإنه لا يأتى بالחסنات إلا هو .
والاستغفار : من ذنوب النفس ، التى منها تأتى السيئات .

وقد قرن الله فى كتابه بين التوحيد . والاستغفار فى غير موضع . كقوله :
﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ ^(١) وفى
قوله ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ، إئتى لكم منه نذير وبشير . وأن استغفروا
ربكم ثم توبوا إليه ﴾ ^(٢) وفى قوله : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما
إلهكم إله واحد . فاستقيموا إليه ، واستغفروه ﴾ ^(٣) .

وفى حديث رواه ابن أبى عاصم وغيره : « يقول الشيطان : أهلك
الناس بالذنوب ، وأهلكونى بالاستغفار ، وبلا إله إلا الله . فلما رأيت ذلك
بثت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يستغفرون ، لأنهم يحسبون أنهم
يحسنون صنعا » .

[مقتضى : لا إله إلا الله]

١١٢ — و « لا إله إلا الله » تقتضى الإخلاص والتوكل . والإخلاص :
الشكر ، فهى أفضل الكلام . وهى أعلى شعب الإيمان . كما ثبت فى
الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « الإيمان بضع وستون -
أو بضع وسبعون - شعبة . أعلاها : قول لا إله إلا الله . وأدناها : إمالة
الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » .

فـ « لا إله إلا الله » هي قطب رضى الإيمان ، وإليها يرجع الأمر كله .
والكتب المنزلة : مجموعة في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وهى
معنى : « لا إله إلا الله » و « لا حول ولا قوة إلا بالله » وهى من معنى :
« لا إله إلا الله » و « الحمد لله » فى معناها ، و « سبحان الله ، والله أكبر »
من معناها ، لكن فيها تفصيل بعد إجمال .

فصل

[معنى قوله : « فمن نفسك »]

١١٣ - وقد ظن المتأخرين : أن معنى قوله « فمن نفسك » أى أفمن
نفسك ؟ وأنه استفهام على سبيل الإنكار ، ومعنى كلامه : إن الحسنات
والسيئات ، كلها من الله ، لا من نفسك .

وهذا القول يباين معنى الآية ، فإن الآية بينت أن السيئات من نفس
الإنسان . أى بذنوبه ، وهؤلاء يقولون : ليست السيئات من نفسه .

ومن ذكر ذلك : أبو بكر بن فورك . فإنه قال : معناه : أفمن نفسك ؟
يدل عليه قول الشاعر :

ثم قالوا : تحبها ؟ قلت : بهراً عدد الرمل والحصى والتراب
قلت : وإضمار الاستفهام - إذا دل عليه الكلام - لا يقتضى جواز إضماره
فى الخبر المخصوص من غير دلالة ، فإن هذا يناقض المقصود . ويستلزم أن
كل من أراد أن ينفى ما أخبر الله به يقدر أن ينفيه ، بأن يقدر فى خبره
استفهاماً . ويجعله استفهام إنكار .

وهذا من جهة العربية نظير ما زعمه بعضهم فى قول إبراهيم عليه السلام :
﴿ هذا ربى ﴾ ^(١) أهذا ربى ؟

قال ابن الإنبارى : هذا القول شاذ ، لأن حرف الاستفهام لا يضمن إذا كان فارقاً بين الإخبار والاستخبار .

وهؤلاء استشهدوا بقوله : ﴿ أفإن ميت فهم الخالدون ؟ ﴾ ^(١) .

وهذا لا حجة فيه ، لأنه قد تقدم الاستفهام فى أول الجملة ، فى الجملة الشرطية ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ ^(٢) فلم يحتج إلى ذكره ثانية . بل ذكره يفسد الكلام . ومثله قوله : ﴿ أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ﴾ ^(٣) وقوله : ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ؟ ﴾ ^(٤) وقوله : ﴿ أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ؟ ﴾ ^(٥) وهذا من فصيح الكلام وبلغه واستشهدوا بقوله :

لعمرك لا أدرى ، وإن كنت دارياً بسبع رمين الحجر ، أم بثمان ؟
وقوله :

كذبتك عينك ، أم رأيت بواسط غلس الظلام من الرباب خيالا ؟
تقديره : أ كذبتك عينك ؟

وهذا لا حجة فيه . لأن قوله فيما بعد « أم بثمان » و « أم رأيت » يدل على الألف المحذوفة فى البيت الأول . وأما الثانى : فإن كانت « أم » هى المتصلة فكذلك . وإن كانت المنفصلة فالخبر على بابه .

وهؤلاء مقصودهم : أن النفس لا تأمير لها فى وجود السيئات وليست سبباً فيها . بل قد يقولون : إن المعاصى علامة محضة على العقوبة ، لا اقترانها بها . لا أنها سبب لها . وهذا مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف ، وللعقل .

(٣) البقرة ٨٧ .

(٢) آل عمران ١٤٤

(١) الأنبياء ٣٤

(٤) البقرة ١٠٠ .

[الله لا يهلك أحداً ولا يعذبه إلا بذنب]

١١٤ — والقرآن يبين في غير موضع : أن الله لم يهلك أحداً ولم يعذبه إلا بذنب ، فقال هناك : ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ وقال لهم في شأن أحد ﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها . قلتم : أئني هذا ؟ قل : هو من عند أنفسكم ﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿ وما أصابتكم من مصيبة فما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ ^(٢) وقال تعالى في سورة الشورى أيضاً : ﴿ وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور ﴾ ^(٣) وقال تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بيئاتاً أو نهاراً . ماذا يستجيب منه الجورسون ؟ ﴾ ^(٤) وقال تعالى : ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون . ذكرى وما كنا ظالمين ﴾ ^(٥) وقال تعالى : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمهر رسولاً يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ ^(٦) وقال تعالى : ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، لئذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾ ^(٧) وقال تعالى : ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر . لعلهم يرجعون ﴾ ^(٨) وقال تعالى : ﴿ أو يوبقن بما كسبوا . ويعفو عن كثير ﴾ ^(٩) وقال تعالى في سورة القلم عن أهل الجنة الذين ضرب بهم المثل لما أهلكها بذلك العذاب : ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ ^(١٠) وقال تعالى : ﴿ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيه صرّ أصابت حرث قوم ظلّموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾ ^(١١) وقال تعالى عن أهل سبأ ﴿ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم — إلى قوله — ذلك

(١) آل عمران ١٦٥	(٢) الشورى ٣٠	(٣) الشورى ٤٨ .
(٤) يونس ٥٠	(٥) الشعراء ٢٠٨ ، ٢٠٩ .	
(٦) القصص ٥٩	(٧) الروم ٤١	(٨) المجدة ٢١ .
(٩) الشورى ٣٤	(١٠) القلم ٣٣	(١١) آل عمران ١١٧

جزيناهم بما كفروا . وهل نجازى إلا السفور ؟ ^(١) وقال تعالى : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ ^(٢) وقال تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ ^(٣) .

وفي الحديث الصحيح الإلهي : « يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيراً : فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك : فلا يلومن إلا نفسه » .

وفي سيد الاستغفار : « أبوء لك بنعمتك عليّ ، وأبوء بذنبي » وقال تعالى ﴿ وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك . ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ ^(٤) .

والحمد لله وحده ، وصلى الله على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه وسلم .
ورضى الله عن الصحابة أجمعين ، وعن التابعين وتابعي التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .



الفهرس

س	س
٢٠ - محمد لا يأتي من عند نفسه	شيخ الإسلام الإمام (مقدمة المحقق) ٣
٣٥ - لا بنعمة ولا بمصيبة	١ - آية (ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وسياقها ١٥
٢١ - إبطال قول الجهمية والجبرية ٣٧	٢ - المراد بالحسنة والسيئة في عامة المفسرين ١٨
٢٢ - الفرق بين الحسنات والسيئات ٣٨	٣ - معنى الحسنات والسيئات في كتاب الله ١٨
٢٣ - الشكر والاستغفار ٣٩	٤ - المأمور به والمنهى عنه ١٩
٢٤ - التأسي بالسعداء ٤٠	٥ - معنى التمييز « بما أصابك » ١٩
٢٥ - مضاعفة الحسنات ٤٢	٦ - آراء المفسرين ٢٠
٢٦ - القدر بين المالين فيه ٤٣	٧ - رأى ابن تيمية ٢٢
٢٧ - الحكمة في تعذيب الحيوان ٤٤	٨ - تتابع المعاصي ٢٣
٢٨ - الشر الخاص والعام ٤٥	٩ - تتابع الحسنات ٢٣
٢٩ - المعجزات ٤٦	١٠ - تحكيم السنة ، وتحكيم الهوى ٢٤
٣٠ - إضافة الشر إلى الله سبحانه ٤٦	١١ - شرورا النفس ٢٧
٣١ - خطاب الرسول في القرآن ٤٧	١٢ - الرد على القدرية ٢٨
٣٢ - أفعال الله الحسنة ٤٩	١٣ - لا إشكال في الآية ٣٠
٣٣ - الحسنات أمور وجودية ٥١	١٤ - قول أعداء الرسل ٣١
٣٤ - هل الترك أمر وجودي أو عديم ؟ ٥٣	١٥ - تطهيرهم بالرسولين ٣٢
٣٥ - الإنسان إمام عبد لله أو عابد للشیطان ٥٤	١٦ - معنى الطائر ٣٣
٣٦ - منشأ السيئات الجهل ٥٧	١٧ - طاعة الرسول ، فتح وخير ٣٤
٣٧ - أصل الشر البغلة والشهوة ٥٩	١٨ - الابتلاء ٣٤
٣٨ - العلم : خشية الله ٦١	١٩ - المصائب أجر للمؤمنين ٣٥
٣٩ - الفطرة ٦٣	
(١١ - الحسنة والسيئة)	

- ٤٠ - هداية الله
٤١ - طبيعة النفس
٤٢ - غلط القدريّة في « إرادة الإنسان »
٤٣ - كل ما خلقه الله فهو نعمة للمؤمنين
٤٤ - نعمة الايمان ، أفضل النعم
٤٥ - الصبر على السراء والضراء والشكر عليهما
٤٦ - ذنوب الإنسان
٤٧ - القرآن كله تذكير بآلاء الله
٤٨ - الفرق بين الحمد والشكر
٤٩ - قضاء السيئات
٥٠ - حكمة خلق الإنسان
٥١ - قضاء السيئات
٥٢ - ما في قوله تعالى (من نفسك) من الفوائد
٥٣ - العبرة في قصص الأنبياء
٥٤ - إنها السنن
٥٥ - أعظم السيئات
٥٦ - حب الرياسة والعلو
٥٧ - عمل بنى إسرائيل كعمل فرعون
٥٨ - معنى الامة
٥٩ - أتباع الرسل المخلصون
٦٠ - المؤمن ، عمله لله وبالله
٦١ - الذنوب ابتلاء
- ٦٢ - الإخلاص شفاء
٦٣ - الشر ليس إلى الله
٦٤ - الذنب يحدّثه العبد
٦٥ - عقوبة عدم الإيمان
٦٦ - النعم كلها من الله
٦٧ - لاطاعة لخلق في مصيبة الخالق
٦٨ - خبث السيئات
٦٩ - الثواب والعقاب بحكمة وعدل
٧٠ - جهنم وبدعته
٧١ - نشأة المعتزلة والجهمية
٧٢ - ظهور الجعد بن درهم
٧٣ - محنة الإمام أحمد بن حنبل
٧٤ - القائلون بخلق القرآن
٧٥ - رأى الأشعرى
٧٦ - رأى الهروى
٧٧ - رأى الجنيد
٧٨ - مذهب الصوفية في الفناء وما يلزم عليه
٧٩ - وحدة الوجود
٨٠ - حكمة الله وعدله
٨١ - في كلام الشاذلى تعطيل الأمر
٨٢ - الكرامات عند الصوفية
٨٣ - الشعوذة
٨٤ - أصل الشر
٨٥ - أصل الشرك

- ص
- ١٣١ - ١٠٠ - الشفاعة المقبولة
- ١٣٢ - ١٠١ - الشفاعة المنفية
- ١٣٨ - ١٠٢ - الشفاعة لله
- ١٠٣ - معنى « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » ١٤٣
- ١٠٤ - « من ذا الذي يشفع عنده » ١٤٥
- ١٤٥ - ١٠٥ - القرآن متشابه ومشأنى
- ١٤٦ - ١٠٦ - الشفاعة لأهل لا إله إلا الله
- ١٥٠ - ١٠٧ - من تشفع بنبي الله
- ١٥١ - ١٠٨ - ضلال الناس في الشفاعة
- ١٠٩ - الشفاعة سبب من أسباب الرحمة
- ١٥٢ - ١١٠ - الحمد : رأس الشكر
- ١٥٤ - والاستغفار
- ١٥٥ - ١١١ - فضائل وأدعية
- ١٦٦ - ١١٢ - مقتضى : لا إله إلا الله
- ١٥٧ - ١١٣ - معنى قوله « فمن نفسك »
- ١١٤ - ١١٤ - الله لا يهلك أحداً ولا يعذبه
- ١٥٩ - ١١٥ - الإلذنب

- ص
- ٨٦ - من صفات « الولي » عند الصوفية ١١٤
- ٨٧ - دعوى سهل التستري في الولاية ١١٥
- ٨٨ - الاعتداء في الدعاء ١١٧
- ٨٩ - لا تطلب الحسنات إلا من الله ١١٨
- ٩٠ - المشركون عندما تنزل بهم الضراء ١١٩
- ٩١ - أهل الصبر والشكر ١٢٢
- ٩٢ - تفسير آية « وكأين من نبي قتل » ١٢١
- ٩٣ - ما يحدث عند موت النبي ١٢٢
- ٩٤ - أدعية الرسول (ص) جامعة ١٢٣
- ٩٥ - معنى « لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت » ١٢٤
- ٩٦ - توحيد الإلهية ١٢٦
- ٩٧ - توحيد الربوبية ١٢٦
- ٩٨ - حقيقة الشفاعة ١٢٧
- ٩٩ - معنى « إذن الله » ١٢٩